غداء في حضرة الشيطان

غداء في حضرة الشيطان

أحمد النحاس

تصميم الغلاف:

تدقيق لغوي:

رقم الإيداع:

-I.S.B.N: 978-977-488-

دار اكتب للنشر والتوزيع

الإدارة: 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة.

المدير العام: يحيى هاشم

هاتف: 01144552557 - 01147633268

E – mail:daroktob1@yahoo.com

Facebook: دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، 2015م

غداء في حضرة الشيطان

أحمد النحاس

قصص



دار اكتب للنشر والتوزيع

أبي الذي لا يعرفُني

لا يتورع أبي عن تعنيفي، ولا يألوا جُهدًا في إرضاء نفسه بوَصَلات الردح التي يُسقطُها عليَّ كل يوم. يُجزمُ دائمًا ويقسمُ على أن المعاملة اللينه "متنفعش مع ولاد الكلاب"، غير أنه لا يرى في نفسه سوى "سبع البرمبه". يأتيه أخي الأصغر ليُلطّف الأجواء السوداوية بيننا مُداعبًا إياه: "بس يا بابا كدا أنت بتشتم نفسك"، فيقع في شِرك الخطأ غير المُغتفر من كونه "تجرأ على أبيه الوحيد" كما يقول!

السجائر لا تخلو مِن بين يده ولا مِن جيبه، وغبائرها تقتحمُ شقتنا دون ارتحال، "واللي مضايق يشوفلوا مكان تاني" هكذا يصدح فتنكمش أمي بين طياها مُعلنةً استسلامها له، وأها "وأنا مالي يا أخويا دول عيالك".

الثقافة بالنسبة لأبي مِن المُحرمات، وكلمة "مُثقف" لا تعني له أكثر من فيلم إباحي نَبْتَاعُه بالمشاركة أنا وأصدقاء السوء مِن "المُثقفين" أمثالي، لنشاهده في شبق المُحروم ونعايشه في تمّني وانتظارٍ لذلك اليوم حتى نفعل ما يفعله أبطال الفيلم.

أتذكر يوم أن انتوت أختي التي تصغرني بعامٍ واحدٍ اللهوَ معي بعد أن شاهدتني وأنا أضع أمامي ثلاثة كُتب وفي حالة تأهُّبٍ للغوص في أحشائهِم فراودتني بقولها: "لأ واضح إنك مُثقف". انتقلت تلك الكلمةَ إلى مسماع أبي الذي هرولَ إليها مُقتحمًا غُرفتي قبل أن

يعاجلها ببصقةٍ على الوجه، وصفعةٍ بالقدم أصابت مؤخرتها، ورمية باليد لم تُخطئ قفاها قائلًا: "أمال سبتي إيه للدكور يا قبيحة؟!".

يعمدُ الجميع في البيت نحو الاختباء فورَ سماع طرقعات قدماه على درجات السُّلم ويتحاشون وجوده بيننا، فلا تليفزيون يوقدُ في حضرته، ولا أغاني تُعزف في حضوره، ليس لأنه يرى فيهما الحرام، ولكن "حرام كل الفلوس دي اللي بتتدفع ف الكهربا"، تلك هي ركيزته. في الوقت التي تُحاول أمي بين الحين والآخر أن تتشوش عليه وتقول وهي تنتصفنا أنا وأخي وأختي في جلسةٍ تُشبه تماما جلسة "الكُتَّاب" حيثُ "سَيدنا ومِن حوله العيال الصغيرة اللي بتقرأ قرآن بطريقة غلط"، لتستطرد حَكيّها وفضفضتها لنا بأنها ستثور على أبينا الظالم "هو أنا يعني أقل من صفية زغلول"، وتنفجرُ بضحكة مَكْلُومَة نعلمُها نحن جيدًا، ولكن سُرعان ما ترضخ بعد أن يصفدهاً في ذيل السرير بحبلٍ غليظ كالذي تُقيد به الحيوانات الضالة إذا ما تعثرت بين يدي الصبية في "حارة سد"، شاهرًا كلماته لي ولأخي الصغير وأختي الوسطى بأنه "هيخلي عيشة أمنا سوده لو فكرنا نفكها".

أُكِّنُ أنا الحُب الشديد لأبي، رغم أنه لم يترك لي حضنه ألبتة "ولو بالإيجار". نعم كُنت أريده معي في ذلك اليوم إبّان خروجي من المدرسة حيث كان عُمري وقتها لا يتعدى العشرة أعوام، وحدث أن هطلت السماء دموعها علينا بوفرة، ورأيت أمثالي مِن الأطفال وهم ينطلقون صوب ذراعات آبائهم التي فُتحت مِن بعيد مُنتظرين ذلك الجسد الطفولي، الذي لا يختلف عن جسدي وقتها وما يلبث أن

يختفي هذا الطفل في ثنايا أبيه فلا أرى منه إلا قدميه بعد أن دسّهُ والدُهُ بجوار قلبه مُقبِّلا إياه غير مُبالٍ بثيابه التي غزاها المطر حتى طالت اللحم.

دا اللي سرق العشرين جنية يا أستاذ!!

تُحاصرني تلك الجملة رغم قِدَمِها، أهزُ رأسي وأحاول أن أدفع تلك الذكرى المؤلمة عني ولكن محاولاتي تبوء بالفشل!

نعم أنا سارق العشرين جنية!

كان أبي يقتلهُ الفقر عندما دخلت علينا الأبلة مريم لِتُعلمنا بموعد تقديم معونة الشتاء "متنسوش يا أولاد" هاه!

ماذا أفعل؟!

لا يمتلك أبي سوى القليل من الأموال التي يتحصل عليها بعد الكثير من العمل. أعتقد أن هذا الرجل لا ينبغي أن يُطالبه أحد بتلك التي تُسمى بمعونة الشتاء التي لا نعلم أين تذهب ولمن!

لن أُطالب أبي بمبلغٍ كهذا، يكيفه ما يتحمله مِن أجلنا نحن، ولكنه ليس أقل من آباء أصدقائي، وأنا لا أريد أن ينظر إليه أحد نظرة دونية، ويعايرني الجميع بفقرِ أبي الذي لم أرَ فيه مدعاةً للخجل.

وفي أثناء عودتي من المدرسة وقبل أن أتخطى أبوابها، رأيت باب المدير وقد أضحى لي جيدًا أنه مفتوح ولا يوجد به أحد، فدخلت على وَجَلٍ، وأخذت في العبث بأوراق مُلقاةً على وجه مكتبه الخاص، فنتجَ عن عَبثي سقوط بعض الوريقاتً المالية، ارتعش قلبي من الفرحة

والخوف، سأكون سارق ولكني سأزيح عن أبي هذا المبلغ الباهظ فنحن أولى به.

وفي اليوم التاني وفور دخولي الفصل رأيت أحد الأصدقاء وقد أشار عليّ وهو يقول: "هو ده يا أستاذ اللي سرق العشرين جنية من مكتب المدير أنا شفته وهو بيحطها في جيبه" .. يا لها من ذكرى سيئة! أردت مُساعدة أبي وإظهاره على ما يرام فكانت النتيجة أني قضيت باقي أيامي في المدرسة مُلقب بحرامي العشرين جنية!

إنتي يا ولَيّه مِن النهردة مش هتخرجي من البيت ولا هتشوفي الشارع .. أبي مُخاطبا والديّ!!

أمي: إنت مش هتبطل تحكُماتك فينا يا راجل اتقي ربنا بقا!

أبي: اسمعي الكلام منِ سُكات يا حُرمه.

أمي: أنت هتشنلي حرام عليك، عيالك كبرت وأنت مش واخد بالك إنهم على سِن جواز.

أبي بسخرية: جواز!!

ههههههههههه مش لّما أبوهم يدخل دُنيا!

أمي: تدخل دُنيا، أمال أنا إيه يا راجل؟!

أبي: انتي مش دنيا انتي أخرة يا وش النحس هههههههههههه

أمي وقد امتلأت بالغيظ: ربنا ينتقم منك!

(وأسرعت بقذفه بجسدٍ خشبي في يدها جشّ رأسه فَسالت الدماء)

أبي: آه يا فاجرة، عليًّا الطلاق لأموتك انتي وعيالك.

يصرخ أخي الصغير من فرط الخوف ماسكًا بكُمِّ أبي: خلاص يا بابا خلاص، ما تموتش ماما، والنبي يا بابا!

(أبي وقد دفعه على الأرض بقسوة .. اسكت يا ابن الكلب)

تحاول أختي هي الأخرى أن تدفع الأذى عن والدتي فتُخفيها وراء ظهرها، وتتلقى تلك الطعنة التي أسقطتها على الأرض قتيلة!

أسرعتُ أنا فأمسكتُ أبي، مُختلعًا تلك المطواة من بين يداه، فتركها لي بعد عناء، ولكن لم تتوقف طاقة الإيذاء من داخله بعد، فسرعان ما أحضر أنبوبة البوتاجاز وهدّدَ الجميع بالموت، ربما كان يريد التهديد، قبل أن تتحرك أمي ناحيته لتفتكَ به قبل أن يفتكَ هو بنا، فما كان منه إلا أن أشعل الأنبوبة وسارع في الهبوط من الشقة. أُضرمت النيران في جسد أمي الضامر، فأسرع إليها أخي الصغير: أمي، أمي! مُحتضنًا حُضنها المُشتعل، فَلَقِيَا حتفهما مَعًا. وهأنذا أعيشُ نصف عيشة بعد أن أكلت النيران قدميَّ، فلم يعُد لي حراكٌ بعد اليوم!

يستطيع أبي الآن أن "يَخمدَ" رأسه وينام، فقد مات الحُلم فور موت أخي الصغير، واندثرت البسمة بعد أن ماتت أختي، وقُتل الحنان في أحضان أمي، وبقيت أنا مع أبي الذي لا يعرفني!

العُهر في باحات الدهر

تُمر الأيام ويرتفع بنا العُمر وهو في حقيقته ينخفض ويتقلص وينتابه الضمور.

مَلامحي في نَفس ذات الأيام كمثيلتها، أجد أن الحُزنَ يَكسوها، وقلبي أراه مُتروِيًا لا يستطيع التكلُّم، رُبما يكونُ ذلكَ ناتِجٌ عَن هَمٍّ أو يأسٍ أو اكتئاب، غير أني في كُل الحالات لا أسمعُ لهُ هَمسًا "أي: القلب"!!

ومِن المَعلوم عَن الإنسان -بالضرورة- أنه إذا ما سَكَنَ قَلبُه سَكنت جميعُ جوارحه، وهي نَفس اللحظة التي فيها لا طائل مِن وجود أيٍّ مِن الآخرين بجانبك ولا جدوى مَن أن يَلتف الجميعُ حَولك، فحتى روحُكَ هي الأُخرى ستنسحبُ مِن داخلك في مَشهد خُذلاني بامتياز دون أن تُلقي لك بالًا أو تهتم بوضعية جسدك المُهترِئ المُنكفِئ المكلوم!

وعِندها تكون النهاية التي مَعها يندثِرُ الاسم، ويختفي الشَّكل وتمحوكَ الأيام ، وينساك الجميع، وأبدًا لن يكون لكَ صوتٌ بعد اليوم!!

(مَحكمة يرجُّها صوت حاجب قبل أن يدخل أعضاء هيئة التحكيم

القاضي: نادى يا ابني على المتهم في القضية رقم **16** لعام **1987** بنداء حنجوري "الدكتور عابد سليم، المتهم في قضية شذوذ جنسي"

نعم يا فندم!!)

يدور هذا الحدث الجَلَلُ وسوء الحظ المُنتظر ذهابًا وإيابًا في مُخيلة الدكتور عابد.

يبدو أن محبسهُ الانفرادي الذي لا يستطيع أن يفرد قدميه فيه يسبب لهُ إزعاجًا مُضاعفًا، وألوان التعذيب اللفظي الذي يُمارس عليه لا تُغمضُ له جفنًا.

"خُسارتك يا دكتور كان نفسي تكون دكر"

يعمد الجميع داخل السجن من أفراد أمن وضباط في إحداث وإلحاق الأذى به، والمُتحرشون داخل السجون لا شك كُثر وما أكثر الرغبة في إشباع الشهوات ولو على حساب مؤاخرات الذكور!

"دي مُعاملة البهايم بتكون أشيك وأرق من كدا يا حكومة قذرة وناس أقذر"

لا يفتأ الدكتور عابد يردد تلك الكلمات كلما لاحت بِذّات القادة داخل "مُعكسر الكُفار" كما يُسميه.

ينتظر الحُكم، وأيُّ حُكم! بل وأيُّ قضية تلك التي سأحاكم فيها؟!

المُحقق صلاح سالم مِن نيابة جنوب القاهرة على حدود بوابات سجن المزرعة، يقف هذا الأخير مبرزًا بطاقة التحقق مِن الشخصية وخطاب النيابة لهيئة السجن بشأن الموافقة على إجراء تحقيق مبدئي مع الدكتور عابد.

الصحافة لا تُمهل الأخير، ولا تُهمل هذة الفرصة في الخروج بسبقٍ صحفي ممثّلٍ في تصريحٍ ما أو خبر حصريّ:

يا فندم عايزين نعرف نتيجة عرض الدكتور عابد على النيابة العامة أول مِن أمس؟

لا جواب

لا ردود

لا سؤال لكم عندي ولن أجيبكم .. روحوا للنائب العام .. الله!

قالها المُحقق رَدًّا على صحفيّي بعض الجرائد المُتابعة للحدث مُنذ البداية والذي تزاحم بهم مُحيط السجن، وما لَبِثَ أن ابتلعته الأسوار الشاهقة.

"علامات الدهشة، نظرات الاحتقار، حنبلات اللسان، صمت المُعاند، صمود القوي"

هكذا كان طابع الدكتور عابد إبّان التحقيق الذي نُصبَ له في مكتب مأمور السجن على غير موعد مُرتقب، فالجلسة موعدها لم يأتِ بعد!

المُحقق: يا دكتور عابد، أنت شخصية مرموقة في البلد والمستشفى الخاصة بيك على مستوى عالٍ من السمعة الطيبة، فما قولك فيما هو منسوبٌ إليك مِن كونك مريض بالشذوذ الجنسي؟

الدكتور عابد: دي قضية مُلفقة وتلويث سمعة أشراف.

المُحقق: مين له مصلحة في تلويث سمعتك يا دكتور؟

الدكتور عابد: سؤال عبثي!!

المُحقق: أجِبْ دون خروج عن المضمون، أنت في جلسة تحقيق.

الدكتور عابد: وأنت في حضرة راهب، وأمام جليسٍ هُناك الآلاف من البشر يحتذون حذوه.

المُحقق: لأ بقولك إيه شُغل الجنان ده مبحبوش.

الدكتور عابد: مستوايا العلمى واسمي ما يسمحوليش بالهذيان.

المُحقق: الأوراق اللي قدامي بتقول إن نتائج الفحوصات أكدت إصابتك بالشذوذ الجنسي، وبالتالي فاتهام النيابة ليك بممارسة الشذوذ داخل مَشفاك صحيح وبشهادة الشهود كمان.

الدكتور عابد: قولتلك أنت في صومعة راهب وأمام شيخٍ عارف بالله.

المُحقق: واضح يا دكتور إننا أخطأنا لما ظنينا فيك ظن الخير وبإنك هتعترف على طول ومش هتغلّبنا.

الدكتور عابد "مُتهكمًا": ظنيتوا فيّا ظن خير وعايزيني أعترف بإني شاذ .. بصراحة قضاء عادل وميزان حكومي رشيد.

المُحقق: هعملك قضية سبّ وقذب لو لسانك اتحرك بكلمة تانية.

ينصرف الدكتور عابد مِن أمام المُحقق صلاح سالم بعد تحذيرات الأخير له غيرَ عابئ بتلك العنترية، ويتوعد المُحقق بأيام سودا لن يفلت مِنها في الدنيا والآخرة.

يُحكِم الباش شويش مرزق إغلاق باب السجن على الدكتور عابد، بعد أن يربت على كتفه مواسيًا ومُصبِّرًا ومُبشرًا إياه: "ربنا يفك سجنك يا سي الدكتور".

صوتُ صرير الباب المُنسحب بيد الشويش مرزق يُجهزُ على هذا المشهد، وظلام الظُّلم يحتلُّ أرجاء الغرفة، وآهات البشر على اختلاف أصنافهم يأتيِ بهم المساء فيُفصحُ كُل واحدِ مِنهم عمّا بداخله.. ويبقى الدكتور عابد حبيس الانفراد، حبيس الوَحدة والصمت والتحدث مع الذات!

لا ونيسَ إذن، شذوذ.. يا إلهي!! كيف يصل العداء إلى هذه الدرجة مِن اللا ضمير واللا أخلاق واللا تقدير لي ولمركزي العلمي.

وحتى لو كُنت كذلك ما الذي يجعل ابنتى الوحيدة تُقدِمُ على فِعلتها .. أتتهمُ أباها بتُهمةٍ كتلك؟!

تنبض دقاقات الساعة وتجري، وترتعشُ معها نبضات قلب الدكتور عابد.

اليومَ موعد الجلسة،

اليومَ الحُكم سيكونُ نافذًا.

ليتني لم أتمتع بتلك الشُّهرة اللعينة التي جلبت لي متاعبَ جمة.

الصحافة ستأكل اليوم في جسدي،

الشهود الزور سيعلنون القتال على الله اليوم!

بنتي كيف ستقوى على أن تنظر إليّ؟!

الشويش مرزق: يلّا يا دكتور عابد، القوى اللي هترحلك للمحكمة مستنايك بره.

دكتور عابد: يحركُ رأسع بالاستجابة، يَبْدَ أن لسانه صام عن الكلام كما صامت أمعاؤه عن الأكل.

هذا هو اليوم المشهود .. هذا هو الحدث الجلل، وسوء الحظ المُنتظر.

"محكمة"

وها هو صوت الحاجب..

القاضي مُخاطبًا الدكتور عابد: يا دكتور أنت متهم بالشذوذ الجنسي وبممارسته داخل مَشْفَاك وعلى مرأى ومسمع مِن العاملين معك.

دكتور عابد: يا فندم أنا طبيب مشهور، ومهارتي في الطب يعلمها الجميع.

القاضي: أنا بقولك أنت متهم بالشذوذ الجنسي، ما لي أنا ومهارتك في عملك!!

(هاني ابنة الدكتور عابد ترفع يدها تريد التحدث)

هاني للقاضي: يا فندم والدي شاذ، إحنا ياما حذرناه مِن افتضاح الأمر، ياما حذرناه مِن عواقب وخيمة ممكن يشوفها، بس هو كان بيرفض حتى إنو يستمع لينا، عرضنا عليه إننا نعالجه خارج مصر وفي سرية تامة، لكن هو فضّل هذا الطريق اللعين المُغضِب للرب.

دكتور عابد "في نبرة توسل": ليه كدا يا بنتي؟! ليه الادعاء القاسي ده؟ بتتهمي أبوكي بالشذوذ!!

القاضي: اسكت يا عابد وما تتكلمش غير لما أقولك.

هاني: يا حضرة القاضي أنا مَن قُمتُ برفع دعوى جنائية باتهم فيها والدي بأنه يمارس الشذوذ في المستشفى الخاصة بينا، وأنا طبيبة وعارفة يعني ايه سمعة حسنة.

القاضي: بس مش غريبة إن بنت ترفع قضية زي دي على أبوها؟!

هاني: من النهردة دا مش أبويا وأنا لا أتشرف به.

القاضي: ما هي وظيفة زوجك؟

هاني: زوجي يعمل طبيبًا بمستشفى والدي.

القاضي يهمس إلى مَن بجواره ويطلب "بسرعة إحضار الزوج للشهادة والاستماع"

أنا موجود يا فندم .. قالها شريف زوج هَاني

القاضي: تعالى أقف هنا، أَقْسِمْ أن لا تقول إلا الحق.

شريف: أُقسمُ لكم أن لا أقول إلا الحق.

القاضي: أنت كنت بتشوف الدكتور عابد في أوضاع شذوذ داخل المستشفى؟

شريف: الدكتور عابد ده إنسان خلوق، ولا يمكن يعمل حاجة زي كدا.

تضِج القاعة بالجالسين، تدمعُ عين الدكتور عابد فرحًا، تصرخ زوجته: إيه أنت اتجننت؟!

القاضي: مش عايز اسمع صوت حد وإلا هَخلِي القاعة من كل الموجودين.

(الدكتور عابد وقد تمسّك بأصابع القفص الحديدي، وحدّق بعينيه في وجه شريف كاشفًا عن ابتسامة رجاءٍ وترجٍّ بأن يبقى ويُبقي على شهادته، فَثَمّ النجاة وعدم تلويث السُّمعة الذي سيلحقُ به)

هَاني وقد شرعت في جذب زوجها شريف صارخةً في وجهه: أنت كداب.

القاضي: أمرنا نحن قاضي محكمة جنوب القاهرة تجديد حبس الدكتور عابد خمسة أيام على ذمة التحقيق، على أن تُحدد جلسة سرية بتاريخ **8/12** لسنة **1987** لسماع أقول وشهادة شريف الصاوي أحد العاملين بمستشفى الدكتور عابد سليم ..رُفعت الجلسة.

مش قولتلك فرج ربنا كبير يا دكتور .. قالها الشويش مرزق مُحتضنًا إياه.

يتضح جليًّا أن المُتعاطف الوحيد مع الدكتور عابد داخل جنبات السجن الدامس هو ذلك "الرجل الطيب"، كما ينعته الجميع داخل السجن للتهكم أحيانًا ولإضفاء صفة حسنة له أحيانًا أُخرى.

اتفضل يا دكتور .. يدخل الأخير غرفته مُنشرحَ الصدر غير أن التعجب يكاد يُطيحُ برأسه من كون:

ما الذي حدا بـــ شريف للتحدث الآن؟!

ولماذا لم يُدلِ بشهادته مِن ذي قبل؟!

على أيّةِ حال، حسنًا فعلَ .."شريف دا ولد كويس وخسارة في بنتي"، قالها وغطّ في النوم.

مضت ثلاثة أيام .. وجاء اليوم الرابع مُحملًا بأخباره المُعتمة حيث كانت الكارثة التي حطّمت أعصاب الدكتور عابد، فقد قُتل شريف أثناء عودته من عمله، وذُبحت تهاني داخل شقتها والغموض بات يقتل الجميع!

الأمر بدأ في التعقيد إذن..

فَمَن وراء هذا الحادث؟!

ولماذا تُقتل هّاني إذا استسغنا قتل شريف، الشاهد الذي غير مُجريات القضية!!

يالَسوء الحظ! ألم أقل لكم أنه المُنتظر!!

تؤجّل القضية لأجل غير مُسمّى، أو لحين الكشف عن ثغرات تشي بالتعرف على قاتل "صاحبة الدعوى" وزوجها!

محامي المتهم: ما أخبيش عليك يا دكتور عابد الموضوع اتعقد واللي حصل ده مش في صالحك.

دكتور عابد: طيب ايه الحل دلوقت؟

المحامي: ما قُدمناش إلا إننا نستنا ونشوف نتيجة التحقيقات في القضية؟

الشويش مرزق: يا بهوات مش هقدر أسمحلكُم بوقت أطول من كدا، سيادة المأمور على وصول ما تأذونيش.

دكتور عابد: حاضر يا بش شاويش مرزق.

المحامي: أنا همشي يا دكتور عابد، وربنا يستر.

دكتور عابد: اتفضل.

يعود الدكتور عابد إلى محبسه يتروى بين جدرانه، يا لكآبة الصورة، وعبث الأقدار، وتلك الأجواء الشاردة!!

بيدَ أن النساء الباغيات لسن وحدهنّ مَن يُمتهُنّ العُهر، فالدهر يُعلن ممارسة عُهره عليّ!

الدهرُ العاهر!

الدهرُ العاهر!

الشاويش مرزق وقد أبكاه الحال، وأوجعه ما أوجع الدكتور عابد: اهدى يا دكتور أهوه ربنا خدها وريحك منها، مش دي البنت العاقة اللي ظلمت أبوها واتهمته بالشذوذ عشان تتخلص منه وتورثه على الحيا!

الدكتور عابد: بس مات معاها طوق النجاة، مات معاها شريف!

الشاويش مرزق: خليك متفائل.

الدكتور: ربنا يستر!

ما هذا؟!

طلقات نارية تصدح بغزارة خارج السجن، يتحرك الشاويش مرزق من فَوْرِه للخارج حاملًا سلاحه.

يهتزُّ السجن بأرجلِ رجالات الأمن التي أسرعت للتصدي لهذا الاقتحام.

لا أحدَ يعرف من هؤلاء المُلثمون، وماذا يريدون من وراء اقتحامهم للسجن؟!

حالة من الهرج سيطرت على أبواق السجن.

الدكتور عابد ينظر إلى باب محبسه المنفرج الذي تركه الشاويش مرزق مفغورًا، هكذا دون قصد!

نعم أُفكر في الهروب..

أريد التخلص من عُهر الدهر،

هذا الدهر العاهر.

هكذا يقول صوته الداخلي.

يُسرعُ بالانفكاك والإدلاف بعيدًا عن أسوار هذا السجن اللعين،

سأعود لأرى شمس الصباح.

إنها الحُرية والتخلص من العُهر الواقعُ عليّ. نعم.. سأهرب.

يرمق حقيبته التي تجلس بجواره، وكأنه يخاطبها مُحذرًا: "يا لها من مُجازفةٍ يوردُ موردها إلى التهلكة إذا ما فشلت فيها!!"

وسريعًا يسحبُ معطفًا للتقنع به من برد الليل وعيون العسس.

يتجه صوب الباب، يرنو يمنةً ويسرةً فلا يرى سواه، فالجميع في حالة انشغال، يا لها مِن مُسببات!!

هل يكون هذا ما يُسمى بحُسن الحظ؟!

رُبما .. غير أني كنت على وشك أن أنسى كُل ما هو "حُسنٌ" في الدُّنيا، فقد اعتدتُ أنّ سوء الحظ هو المُنتظر دائمًا!

يتحسس موضِعَ قدميه، فقط أصوات الطلقات المُصاحبة لها الأوامر والتعليمات بالتصدي بقوةٍ لهذا الاقتحام هُما المسيطران على

المشهد. تعلو وتيرة الضربات؛ فيشعر الدكتور عابد بأن تلك الرصاصات ما انطلقت من أفواه الأسلحة إلا لتُصيبه هو، ليس غيره!

هذا الشعور يُحجّمه عن التحرك، والرغبة في اللوذ بالفرار من "مُعسكر الكُفار" يزجُّ به زجًّا نحو التقدم، فباب الأمل مفتوح الآن مع نشوب هذا الاقتحام، ولكن سُرعان ما سيُغلق فور السيطرة عليه وإرجاع باب السجن إلى سيرته الأولى موصودًا، منضوبَ الرحمة على مَن خلفه.

يتقدم الدكتور عابد رويدًا رويدًا، يهبط من الدور الثالث إلى الأسفل، الطُرقات مُخضّبة بالدماء. يخرج في باحةٍ عريضة، الضوء الوحيد فيها هو ضوء الطلقات المنبعثة من فتحاتِ الأسلحة، فيَهُمُّ بالرحيل قبل أن يسمع تأوُّهًا وأنينًا يأتي من أقصى اليمين، لا يتجاهله فلن ينسى بعد أنه الطبيب عابد سليم، يقترب على وَجَلٍ من الجسد المُلقى على سفح تَبّةٍ مُخصصة للحراسة والاحتماء حالَ وجود اعتداء.

بصوتٍ مُثقل بآلام الموت يأتي الداعي "يا دكتور عابد، يا دكتور عابد"

يا إلهي مَن صاحبُ هذا الرأس الممجوجة في بركة دماء؟!

إنه الشاويش مرزق!!

يحتضنه الدكتور عابد، يبكيه، يُقبِّل جبينه، وفي نفسه ينعيه.

الدكتور عابد: جرالك أيه؟!

الشاويش مرزق بتهدُج: اسمع يا دكتور عابد، عايز أقولك على سر.

الدكتور عابد: سر!! اتكلم اتكلم.

وكانت الصاعقة!!

يكشفُ الشاويش مرزق عمّا كان منه في الأيام الخالية، بعد شعوره بمذاق الظُّلم المُمضِي الذي فُصِّلَ على الدكتور عابد تفصيلًا، وكيف لبنته "اللي من لحمه ودمه" أن تتهمه بهذه التُّهمة الشائنة ليس لشيءٍ سوى ابتغاء عَرَضٍ مِن أعراض الدنيا، وغنيمةٍ ستؤول بالضرورة لغيرها بعد الممات، وهو الأمر الذي لم يتحمله الأخير ولم يرتئِ الشاويش مرزق حياله سوى التخلص من هذه البنت العاقة لوغر صدره وصدر أبيها، فما كان منه إلا تَتَبُّع خطوات تماني ابنة الدكتور عابد، وتنكّرَ في زيٍّ جامعي القُمامة بعد أن تثبّت مِن مقر إقامتها.

دقّ الجرس

فُتح الباب

فأخرج مُدْيَةً تمكنَ مِنها بقبضة يده جيدًا، وأسرع بالتأمُّل في وُلُوجِها وخُروجِها في تفاصيل جسدها، وما لبث أن تركها تُغرغر.

يُحملِقُ الدكتور عابد!

يشعر بالصدمة .. ربما ..

يشير الشاويش مرزق بيده صوب الباب. وسُرعان ما تراخت عُروق رقبته ومَدّت رأسه مُعلنةً وفاة الرجل!

يرتجف جسد الدكتور عابد.. مات مرزق، مات مرزق الرجل الطيب!!

يتحول قاصدًا باب الخروج، الطلقات في تزايد، تمامًا كتزايد الخوف مِن الموت الآن ، يركض ويركض ها هو الباب على بُعد أمتار.

الأمل على وشك أن أمُسكَ به..

الحُرية أمامي..

شمسُ الصباح.. ستشبعُ بها عيناي، لا سجن بعد اليوم.

– أقف مكانك!!

يا إلهي.. ما هذا؟!

لا مكانَ لدحدرة العزيمة الآن، التوقف يعني الموت، النظر إلى الخلف فيه الهلاك .. هكذا يقول الدكتور عابد لنفسه.

يستمرئ الركض ليتخطى حدود تلك البوابة اللعينة.

– بقولك أقف مكانك، وإلّا هضربك بالنار!

دون جدوى!

تنطلق الطلقة لا تُخطئ الهدف المُراد لها، لتُصيب كَتف الدكتور عابد، غير أنهُ يأبى الوقوف، يأبى الاستسلام، يأبى الرجوع إلى محبسه

الأبكم إلا مِن صوته، يأبى أن يعود إلى عبث العابثين بمؤخرته بدعوى أنه شاذ!!

وها هو يمعِن في الابتعاد على قدر المستطاع عن باحة السجن، ويحتضنه ظلام الليل في جوفه فيُخفيه عن الجميع.

تمر الساعات وينسحب الستار الأسود عن سماء الوجود.

أشعة الشمس تستقيم، ويستقيمُ معها جسد الدكتور عابد غيرَ مُكترثٍ بندوباته وجروحه الغائرة التي تملأُ جوانبه، يُعافر عَلّه يصل إلى ما يُريد مِن تَبرئة سُمعة جسده الطاهر مِن شذوذ مُلفّقٍ، مُتبعًا تلك القاعدة التي تقول بأنه "أحلى مِن الشرف مفيش"، همتهُ بالفعل حاضرة الآن، غير أن قُواه خاوية وعلى المحك.

يقول الدكتور عابد:

لم تَلن عَرِيْكَتِي مع الدهر طالما أن العُهر لم ينتهِ بعد!!

ويُسدل الستار على غير نهاية!

القابعون تحت التُّراب

توجّست ليلى وأخفت أُمها عنها ما تعبثهُ بليلٍ وتُدبرهُ في خفاءٍ ودهاء!

تحكي ليلى وتقول:

كانت أمي تَجمعُ بين ذكاء العاهرات ودواءِ المرضى، فاتخذت من جَسدها علاجًا لكُلِّ شَبقٍ، وجُرعةً زائدة من الشهوة تُسكَبُ علَى كُلِ عَائزٍ لَها، وكذا لتحصَيلِ الأموال إمعانًا في الاكتناز.

"وتستطرد بعد تنهيدةٍ أحسستُ أنها شقّت الضلوع"

تعيشُ أمي معيشة الملاحدة والدراويش فتكفرُ بالليل في أحضان الرجالات، وتؤمن في منتصف النهار بعد أن تتسربل الخمار وتتحلى بالهدوء والتمتمة بذكر الإله!

حادثتها ذات يوم؛ فضجرت وقالت بأن الله لا يسمعُ مني إلا ذكرًا. وماذا عن تأوُّهات اللذة في أقباء الخمارات، ألا يسمعها الله منكِ؟!

لا عليكِ لا عليكِ .. نطقت الأم قبل أن تذُوبَ في أجواءِ ضحكةٍ رقيعة.

تقول الفتاة: وجاءت تلك الليلة التي شملتها الغيوم مُنذ الطليعة، وغادرت أمي مترلنا "أنا رايحة أزور الأولياء والناس بتوع ربنا".

أُصيبت ليلى بهلعٍ عظيم غير أنها ارتابت فيما تدعيهِ أُمها تلك المرأة المُومِس.

طيب ربنا يهديك .. قُلت.

ومضى اليوم كُله دون أن تعود أمي، فشككتُ أنّ أمرًا جللًا قد وقعَ لها، فاتخذتُ من الصبرِ سبيلًا، عصيٌّ على أمثالي التمسُكَ به لحين الاستبيان. وفات الليل كُله دون جديد.. يا إلهي، ماذا حدث لها!! ودق الهاتف: وجاء صوت الأم يا بنتي تعاليلي بسرعة على العنوان ده، وأملتها عنوانًا في إحدى المقاطعات العشوائية المُتاخمة بالعصيان وظلام الليل الدائم.

فأسرعت البنت بلهفة لا تعرفها أُمها وقفزت داخلَ عباءةٍ فضفاضة، ونفذت خارج البَيت، وقصدت ذلك العنوان المُقلق.

وما إن وصلت هناك حتى وجدت أمها وقد خلعت ما ترتديه عن آخره، وامتطت ظهر رجُلٍ تبدو عليه وشايات الغضب؛ فتملكَتها رجفةٌ من شأنها الموت، غير أنها صارعت نحو الرحيل؛ فقهقهت الأم، وربت الرجلُ على مؤخرتها "هي دي بنتك " .. " أيوة" قالوا.

سقطتُ على الأرض ولم أدرِ ما بي حتى جاءت تلك الليلة .. ليلة عُرسي بعد أن أدركَ زوجي أنني فاقدةً لكُل شيء عدا الألم!!

وقتَها.. كانت أمي في عِداد الموتىَ بعد أن تقرّبت إلى الله بمعصيته فيّ، هكذا كانت تقول لي دَون أن أفهم مؤداها حتى غابت عن الحياة وتركت لي قسطًا وافرًا من الشقاء. كم تمنيتُ أن أكون مِن هؤلاء القابعين تحت التُّراب أمثالها غير أني لستُ كذلك، على الأقلَ.. الآن.

المُتحذلِقون بأقلامِهم

وحدث أن سمع جلال ذاتَ يوم صوتًا أجش يعلمه، بل ويحفظ إطلالاته المحمومة، فهو صوت الأُستاذ "مدبولي الورداني" يَنسحبُ بتعالٍ وتأفُّفٍ مِن داخل مكتبه الفخيم.

طقطق جلال أُذنيه وأمعنَ في سماع "رطرطته" الحاملة لجملة "مهوا ياتنفذوا اللي بيتقلكوا مِن سُكات يا باب الجريدة يفوت ألف حمار، وفي نص ساعة أجيب ألفين بدالكم"!

اتخذَ جلال مِن التَّريث موضعًا ولم يشرئب، بل أبقى على نفسه في حالة مِن الاستتار والتخفي حتى لا يناله نائلٌ يقلب له اليوم لحين استبيانَ مؤدّى وأسباب تلك الزوبعة، ومدعاةِ كُلِّ هذة الكلمات القميئة، و"وصلة الردح" التي تلاقاها بعض زُملائه من رئيس تحريرهم مدبولي الورداني هذا الرجل الجهومي الأليط.

يطلق عليه العاملون بالجريدة اسم "مدبولي أبو شلاليت"، حيث لا ينفك الرجل أثناء مُخاطبة أيٍّ من العاملين بالجريدة عن التعدي عليه بالضرب، فهو دائم القول بأن "الكلام الحاف" لا يُجدي مع "قُلالات العقل وأولاد المُتسخة"، وكثيرًا ما حدث أن يُفاجأ الجميع بارتفاع وتيرة الكلام بين الرئيس وأحد مرؤسيه، يعقبه عُلو نوعيٍّ في الصوت مُتسرب مِن تحت أعقاب باب سيادة الرئيس يتبعُها انفراجة للباب

بشكلٍ عشوائي يوحي للناظرين بأن قُنبلةً ما ستنفجرُ حالًا، ولا مناصَ مِن التخلي عن "الإتيكيت" في المشي واللجوء إلى الهرولة حيث اللوذ بالحياة مِن موت مُحقق، وإذ بمتفحِّصي هذا الهذيان مِن رجالات الجريدة ونسائها يُشاهدون سيادة رئيس التحرير في حالة مِن الرَّكْضِ -الذي لن يُجدي مَعهُ مُحاولات أيٍّ من الموجودين للتهدئة- خَلف زميلهم إلى آخر صالة التحرير حيث باب الخروج، وتلك اللافتة "***EXIT***" الشاهدة على كل فغارت فاه الورداني بالسُّباب والسخائم التي وقعَ كُل العاملين تحت وطأتها.

لم يتردد مدبولي في ممارسة هوايتة المفضلة في "القذف" فَسُرعان ما ذغرَ إلى "المركوض وزاءه" وألحق السيدة والدته بجملة رتيبة عادةً ما تكون "طب اجري اجري يابن الوارمة ومش عايز أشوف وش أُمك هنا تاني"!

العمل مع الأستاذ مدبولي لا يستقيم بدون طمر القلوب والعقول والضمائر، وهذه مِن أوائل الشروط المؤهلة لقبول القادم للعمل بالجريدة التي يرأس تحريرها، فهو لا يقبل الموهوبين إتقاءً لمُناهَضتهُم له ولسياسته المعروفة بالسماجة، ولجريدته المدعومة مِن قِبل رجال ثقال بأجهزة الدولة السيادية.

أو

"لأ أحسن حد فيهم يفتح عينه فيا بعد ما يقالوا اسم، أنا عايز حمير معايا في الجريدة، عشان لما يكبروا مش هيبقوا أكتر من بغال يعني أنا برضو اللي هركبهُم"!

هكذا يقول، وهكذا يرى، وهكذا يفعل!

كما أنه لا يَطيق رؤية أيٍّ من رافعي رايات المبادئ، والساعين للعمل بشكلٍ مؤداه الحقيقة ومُرداه الحق، عمل يتسق مع الأخلاق ولا يخرج عن الصالح العام، وثمة أشياء هي مَن تجعلُ مِنك مُحررًا وكاتبًا بجريدته، تبدأ بقبولك خَلع رِداء العقل أمام عتبات الجريدة، وأن لا تُريه مِنك إلا كل ما هو نذل، سواء في تعاملاتك مع زملائكَ أو الآخرين، وحذارِ أن يرى هذة التي تُسمى بـــ "النذالة المُصطنعة" لأنه سيختبرك في كل الأحوال، وكل ما عليك هو أن تدأب إبان فترة التدريب نحو إثبات أمرٍ هام وهو "إنك تنفع صحفي سيكا".

جرائم الأستاذ مدبولي كثيرة "بس لو شاطر اثبت عليه حاجة"!

فعلاقاته المُتشعبة والمتواصلة مع مسئولين كبار تحولُ بينه وبين وجوده في مَحبس طوله وعرضه متساويان "متر في متر"، على الرغم من أن تلك الدائرة السُّلطوية وشبكة العلاقات العميقة لم يكن عمله الصحفي طرفًا فيها، فقدرته المهنية عِنينة حتى أنه لا يُجيد كتابة سطرٍ واحد، وعقله الأجوف يُساهم بالسليقة في الحفاظ على تكلُّس بقية أعضائه واكتسائها بالجمود في كل تعاملاته مع الآخرين.

بيدَ أن زوجته هي الأُخرى تَلوكُ بشكواها مَنهُ!!

لا ينسى جموع العاملين بالجريدة تلك الأيام التي كثيرًا ما تَلجُ فيها إلى مقر الجريدة لتفضحه أمامنا دون الاكتراث بأي شَيءٍ آخر، فتكشفُ عنهُ أدق التفاصيل حتى أنها عايرته ذات يوم بفحولته "اللي

مش موجودة" وقدرته الجنسية المتضعضعة كل يوم عن اليوم الذي يليه.

ومِن المُثير حقًّا للهذيان أنها ذكرت أمامُنا في إحدى وصلات الردح التي اعتادها مدبولي واعتدنا نحنُ سماعها بالتبعية .. تناوله واحتساؤه للمُنشاطات الجنسية التي لا تُنبئ عن خير ولا تُثمرُ إلا فشلًا جديدًا يُضافُ إلى فحولة الرجل!

يعمد هذا الزوج وهذا الرئيس وهذا "المُتحذلق بقلمه" الناضب، وعقله الخَرِب إلى خلط المعلومة الحقيقة بأخرى زائفة غير مُتحققٍ من مَدى صحتها، وبالرغم من جهله الذي ينتفخُ به أناءَ الله وأطرافَ النهار، إلا أنهُ يجيد تحريك كل من يرأسهُم ليتبعوا سياسة تحريرية "بيّاعة" تترلُ على هَوى القُراء السُّذج، وينحو مَنحى "الصحافة القائمة على الإثارة" والتي تدرُ عليه ما كَثُرَ مِن المال.

"أمال هجيب مراتبات الناس دي كلها منين؟!"

هكذا اعتاد التذرع، كُلما ذكّرته زوجته "يا مدبولي حرام عليك، أعراض الناس مش لعبة"، فإثارة عقول الدهماء بأخبار مُهترئة ومعلومات فاضحة من نوعية "الكشف عن علاقة غير شرعية تربط رجل الأعمال الفلاني فالفنانة الفلانية" أضحت واجبًا وطنيًّا يرى صاحبه أنهُ يستدعي التكريم على صفحات الشاشات!

وهكذا يقتات الأستاذ مدبولي ويعتمد على "الرُّخص" حتى في سياسة تحرير جريدته.

"أمل عبد السميع، وحاتم أبو النصر"

هُما العقل المُفكر للأستاذ مدبولي وهما أيضًا عُضوي في مجلس التحرير القائم عليهم هم الثلاثة فقط.

لا خبر يُنشر ولا آخر يُحجم إلا بموافقة أمل وحاتم، أمّا الثالث (مدبولي) فهم يُدركون جيدًا بأنهُ "ملهوش فيها"، بل إن افتقاره للعمل الصحفي والمهنية جعل منهما رؤساء على "رئيس التحرير"!

فوحده المال هو السبب الأول والأخير في قوة الرجل وانبساط نفوذه مما فتحَ أمامهُ ما لم يكن ليحلم به من ذي قبل.

انتهى جلال حلمي أحد المُحررين، والذي يعمل بالجريدة منذ ما يربو عن التسعة أعوام مِن كتابة أحد التحقيقات الصحفية التي كانت تُشغله إبّان "تهزيق" بعض زملائه من الأستاذ مدبولي.

وهو الأمر نفسه الذي حال بينه وبين القيام لمتابعة الزميل وهو يُضرب بالشلاليت مِن مدبولي كي يتسائل: "هو ايه اللي بيحصل يا ريس"؟!

ترك الأخير أوراق التحقيق الصحفي مع سكرتارية التحرير والتي بدورها ستُسلمه إلى أعضاء مجلس التحرير "الأستاذة أمل، والأستاذ حاتم" فقط، للموافقة عليه وإلحاقه للنشر في عدد الغد.

واتّجه من فوره نحو قسم الاقتصاد بالجريدة حيث يعمل زميل الكفاح أحمد أبو المعاطي، وأحد "مُهزَّقِي" مَدبولي اليوم!

عَبرَ جلال الردهة التي آخرها يسارًا في يسار يقع مكتب أبو المعاطي، وتقدم بخُطى حَثيثة، وأخذ يدلف نحوه برفق ليباغتة بـــ "بخخخخ يا عطوة"، وهي الجملة التي أعقبها انتفاضة أبو المعاطي من كُرسيه قبل أن يقول يوووووووه مش هتبطل العادة المنيلة اللي فيك دي ما نت عارف إني بتخض من أقل حاجة.

جلال: هههههه حبيبي يا عطوة.

أبو المعاطي: شفت ياض اللي عملوا معانا مدبولي الكلب النهاردة؟

جلال بِسُخرية: لأ.. سمعت.

أبو المعاطي: أيوة يا ريس ليك حق تتريق ما نت مش من المغضوب عليهم ولا الضاااااااااااالين، "وأشار إلى نفسه".

جلال: هههههههههههه نُق بقى لحد ما نمشي إحنا الاتنين من هنا، وعلى فكرة أنا مش من المغضوب عليهم وبس دا الضالين نفسهم اسكت اسكت انت متعرفش حاجة.

أبو المعاطي: طيب خلصت شغل ولا لسه؟

جلال: آه خلصت يا عطوة.

أبو المعاطي: طيب أنا قدامي خمس دقايق بالظبط وأخلص أنا كمان اللي في ايدى، وبعدين نخرج عشان نتغدى مع بعض النهاردة. صمت برهة ثم قال .. بس على حسابك هاه؟

جلال: منين يا عطوة أنت نسيت إن آخر مرة طلعت معاك عشان تعزمني بعد ما أكلنا، قولتلي حاسب أنت عشان أنا نسيت الفلوس؟!

ثم إن ميعاد القبض لسه ما جاش، بس مش هحرمك مِن حاجة، خَلّص أنت اللي في ايدك وبعدها نِطلع على بوفية الجريدة ونقضيها سندوتشات .. قشطه؟

أبو المعاطي مُبتسما: قشطه يا صاح.

ترك جلال صديقة يُنجز ما يريد إنجازه، وأخذ يعبث في إِضْبَارة الورق المُلقاة على سطح مكتب أحد الراحلين عنها، إما للعمل الميداني أو "للتزويغ"!

حدج جلال كومة الأوراق والملفات المهملة دون أيَّة اهتمام، وما لبث أن أطرق أبو المعاطي بقلمة على المكتب "أنا خلصت مش يلا بينا" قال ..

جلال: يلا يا برنز.

تأبط أبو المعاطي ذراع صديقه جلال، ونفذا الاثنان قاصدَينِ البوفيه.

أبو المعاطي مُخاطبًا جلال: بس "أبو شلاليت" شكلوا ناوي على شر المرة دي يا جلال.

جلال: طيب قولي بس إيه اللي حصل؟

أبو المعاطي: أبدًا يا سيدي الموضوع وما فيه ....

"إزيك يا عطوة" يقاطعه صوت الأستاذة مديحة السنهوري رئيسة قسم الحوادث بالجريدة.

أبو المعاطي: إزيك يا ست الكُل، صورتك كانت منورة صفحة الحوادث النهاردة.

مديحة: يا سااااتر عليك.

أبو المعاطي ضاحكًا: لالالالا مش قصدي خالص، بعد الشر عليكِ يا ريس.

(لم تكن مديحة ذات بال بوجود جلال. ولا كأنها شافت حاجة)!

جلال: هي لسه زعلانة؟!

أبو المعاطي: يا ابني الناس هنا مش طايقينك.

جلال: يعني أطبل ولا أطري؟

أبو المعاطي: ما كُلنا بنطبل، بس إنت شكلك عندك حساسية، مَتكونش أمك كانت رقاصة.

جلال: هههههههه لأ حلوة منِك يا عطوة يا بَقف.

مَشهد خارجي نهار:

يستقل مدبولي سيارته، ويستمر في إطلاق المزيد من صافرات التنبيه، فيُشير عليه أحد بوابيه

"يا بيه الناس بره كتيرة، ولو خرجت دلوقت لا قدر الله ممكن يأذوك"

مدبولي على مضض: يعني إيه؟!

هي البلد سايبه؟؟

أن كدا حريتي مقيدة جوا بيتي، وأنا مش هسكت على كدا

انتوا متعرفوش أنا مين يا أوباش .. أنا مدبولي الورداني.

وراح في ترديد: "مدبولي الورداني يا شوية جرابيع"

لم يمضِ على محاصرة منزل الأخير الكثير، بعد تلك الاتصالات العديدة التي أجراها برجاله في المؤسسة الأمنية، هؤلاء الذين أغدق عليهم الفلوس، فمنحوه هُم النفوذ والقوة!

حدثت الانفراجة وتمكنت قوات الأمن مِن فتح الطريق أمام مدبولي بعد أن ألقت بالقبض على بعض شباب الصحفيين، الذين شاركوا العشرات في التعبير عن امتعاضهم مِن فساد الأخير المسكوت عليه مِن قِبل المسئولين.

تفاجأ رجالات الأمن القائمة على حراسة مقر الجريدة بوصول مدبولي الورداني في تلك الساعة المُبكرة التي لم تتجاوز التاسعة صباحًا، وأحد مِن المُحررين لم يأتِ بعد سوى .. جلال!

ارتفع ضيق مدبولي، والتوت ملامحه السوداوية

"جلال .. جلال، هو ليه عين ييجي الجريدة بعد اللي عملوا فيّا".. قال.

وأدلف مُسرعًا إلى الداخل:

يا جلال .. أنت يا زفت يا جلال.

جلال وقد كشفَ عن أسنانه بابتسامة ماكرة: نعم ياسي مدبولي

مدبولي وقد نظرَ إليه شزرًا: إزاي أمل وحاتم المُتخلفين دول (يقصد أمل عبد السميع وحاتم أبو النصر أعضاء مجلس التحرير) يوافقوا بأن تحقيق صحفي غير مهني زي اللي أنت كتبته يتنشر وفين في جريدتي أنا .. بتفضحوني في جريدتي يا فشله .. دانا اللي صنعتكوا!!

أنتوا كلكوا مفصولين ومُحالين للتحقيق.

جلال: هههههههههههه تحكيك!!

أنت اللي لازم تعترف بجرايمك.

لازم الناس تعرف حقيقتك يا لص.

مدبولي: مفيش أي حاجة تثبت صحة كلامك اللي نشرته في التحقيق، وأنا هرفع عليك قضية التشهير بشخصية عامة.

جلال: معايا كل المستندات اللي تدينك يا مدبولي .. والبركة في زوجتك.

مدبولي: فَعلتها الساقطة!!

يصل الغضب بمدبولي إلى الحد الذي معه قام بإخراج سلاحه الخاص، وشرع يفتكُ بجلال.

جلال وقد ذاب بين جدران الغُرف فلم تُصبه تلك الطلقة الضريرة.

سَمِعَ الأمن صوت الطلقة المنبعثة مِن مكتب رئيس التحرير، فانطلقوا مِن فورهم ليتثبتوا مِن حقيقة الصوت الذي دوّى مُنذ قليل، فيقابلهم جلال مُهرولًا إلى الأسفل "خدوا بالكم ده معاه سلاح"!

تَكُف مديحة عن الاستطراد في الحكي بعد أن تفطن إلى حقيقة مريرة، وهي أن زوجها عُمر على وشَك الوصول، والطعام لم يُطهَ بعد، ولن يُجدي معه التذرُّع بأن ثمة قصة ناجعة تتحدث عن الفساد ومناقم العِباد، كانت قريحتها قد أهدتها لها في تلك الساعة فشرعت نحو كتابتها!!

وبصراحة عُمر إيدو تقيله "ومدبولي الورداني" مش هيحوش عني.. وضَحِكت ضحكة خفيفة تنُم عن راحة بال.

ثم أخذتها سِنةٌ من التمطع، ذلك الذي يعقب الغوص في فتراتٍ طويلة مِن الكتابة.

آمالٌ عَبُوثة!!

تتأوهُ ندى تأويهة تشقُ الجُدران وتستديرُ بعينيها حيثُ يَجلسُ إزاءها الأُم والأب وبقيةُ الأخوات.

ما أجمل الوحدة! .. تقول.

فــــــ"تزغر" لها الأُم بلؤمٍ، ويَعبثُ الأب في جلسته

غير أن البقاء أمامهم، والإبقاء على الحديثِ معهُم لن يأتي بالخير ولو حرصت.

- مالك يا ندى انتي جَمعانا قُدامك عشان تاخديلنا صورة جماعية؟!

تنطق أُختها الصغيرة بسجية الأطفال، وينفجرُ الجمعُ الآخر بضحكةِ المُتهكم، وبينهُما تجلسُ هي في حضرة الصمت!!

لم تظل تلك الحالة كثيرًا، فبمجرد أن سُمعَ صوتٌ لبعض القذائف الآتية مِن ناحية المجهول أصاب الحضورَ نوعٌ مِن "الهرجلة" المصاحبة للتخفي خشيةَ الموت!

فتسترت ندى هي الأُخرىَ بلباسِها الفضفاض، وألقت بنفسها خلف أحد الحوائط المَطلية بظلام الدهر وظُلم قاطني الحياة.

ثُم أخذت تتحسّس ندى بعينيها ردهةَ المترل، فوجدت أنها خلَت من كُل شيءٍ عدا قطتها صاحبة العينين الزرقاوين، فراحت تلوحُ لها بإشارةٍ لم يفهمْها سواها، فانطلقت القطة على عجلٍ لتقفز بين ذراعيها في ذاتَ الوقت الذي انطلقت فيه بعض القذائف المٌصوبة نحوهما!

ركدت ندى وبين يديها قطتها، فزمجرَ لها الأب مِن وراءِ مُرتفعٍ مِن الأخشاب كان قد أحضره منذ أيام لرفع المبنى درجة أخرى بأن تُبقى على نفسها حيث موضعها، غير أنها كانت تعلم أن الانصياع لقول أبيها يعني الموت، فتركته وصوته دون اكتراث.

في ذات الوقت الذي تعاونت فيه الأم وبقية الأبناء عدا الصُغرى على منعها مِن الخروج والإفلاتِ بنفسها من مَوتٍ مُحقق، لا تعلم هي ماهية الحرص عليه من قِبل أبيها وأمها وكذا أخوهًا.

وفجأةً وجدت ندى باب النفاذ إلى الشارع وقد انفرجَ عن آخره ومن خلفه أتت أختها الصغيرة، تلك التي كانت تعلم بما يُحاكُ لأُختها الكُبرىَ، بعد أن سمعت أباها وهو يوصي أحد الرجالات بأن تكون الطلقة صوب القلب حتى يحدث الموت السريع دون أن تُكلفنا مليمًا واحدًا على مَشفاها، وبالطبع كان واضحًا أن المُشارَ إليها هي ندى!!

مَكثت ندى في إحدى الحُجرات التي أخذت شكلًا على هيئة القُبة، بعد أن خرجت مُسرعة من هذا البيت الخالي من كُل شيءٍ عدا الظُلم، ونظرت إلى أُختها نظرةً تتخللها الدموع غير أنها نظرةٌ لا تشي إلا بالحب. هكذا رمقتها وسُرعان ما غابت وغاب مَعها مؤدّى ما كان يصنعهُ هؤلاء الرُّعن معها. وظنّت ندى أن عناصرَ الحياة الطيبة

جاءت لتداعبها بعد أمدٍ من العناء، أو أن تلك الآمال العَبوثة ستفغر لها تفاصيل البهجة، غيرَ أن الواقعَ أحيانًا يعكسُ الظن، وهذا ما حدث.

ورحلت ندى من جوف تلك القبة التي تسترت بها حتى جاء سكونُ الليل وسكنت تلكَ الطلقات المُتربصة لها، قبل أن يتفاجأ الجمع ببقاء القطة بجوف إحدى حُجرات المترل ورحيل البنت الصُّغرى مع ندى بدلًا منها!!

عن ذيلِ الكَلب

ضربٌ من الهَرَج وشطحاتٌ من المَرَج تسود زُقاق المعلم "نبّوت" فور قدومه. الجميع في دوائر المعرفة بالنسبة له، فهو يَخبُر كل كبيرة وصغيرة تدب في ربوع زُقاقه، ليس له رئيس ولا يؤمن بزعامة أحد عليه، ومهابته يخنع لها القاصي والداني. قَدُّه الثمين ومشيتُه المثيرة للشفقة والضحك معًا لا يضاهيها إلا بَغلة حبلى أوشكت على الوضع. مَقره في كل بيتٍ من بيوت الزقاق وأحد لا يجروأ على غلق الباب أثناء مروره من أمامه. حرافيشه مشهودٌ لهم بالانصياع لأوامره وحُكمه، فلا يأتمرون إلا بما يريده، ولا يفعلون إلا ما تُمليه عليهم ضمائرهم التي هي أيضًا حبيسة الأيادي البضة للمعلم، تجنبهم والتساوي بأسوار المنازل إذا ما احتواهم نفس الطريق، وغيرهم هو الضمانة الوحيدة للبقاء يومًا آخر على قيد الحياة، فهم يقتلون أكثر مما يأكلون، ونزعة العنف من أساسيات وتفاصيل أيامهم ولياليهم.

وفي إحدى الأيام أمرَ المعلم "نبوت" بالاجتماع الفوري مع حرافيشه للتحدث معهم في أمرٍ جَلل، والتشاور في كيفية الخروج من هذا المصير المحتوم والوضع المأزوم. حُدد وقت ومكان الالتقاء المعهود المتواجد أسفل زقاق المعلم نبوت حيث ساحة "الشلحجية"، وهي منطقة خواء تستوعب بالكاد رجال المعلم حتى أن كل واحدٍ منهم اتخذ من الساحة رُكنًا أساسيًّا له لتكون جلسته عليها مَتى شاء المعلم، وقال لهم "عايزكم في اجتماع يا بقر".

أراح المعلم جسده الثمين على مخدة وثيرة صُنعت خِصِّيْصَى لأحد الكُبراء الذين ليس من بينهم هذا "النبوت". منتصف ساحة الشلحجية هو مكان جلسة الأخير، ليس لشيءٍ إلا لأنه يجعل من حرافيشه العصاة له والمغضوب عليهم من جانبه خلفية مُنساه ولا قيمة لهم حتى لا يراهم، فيثير ذلك غضبه ويحول دون أن تمر الليلة على خير بعد أن يتعكر مزاجه وتختل موازينه. وحتى يعودِ لما كان عليه يُلزمه ذلك شُرب زجاجتين من الفودكا المصحوبة بأنفاس النرجيلة، فالغلوشة على دماغ المعلم المتكلفة يعني بالنسبة لكل الحرافيش بأن اليوم الجلسة هتبقى سودا مرشوشة برطوش دماء قد تسيل من أحد الجالسين. أما عن المتصدرين لمجال رؤية المعلم فهم أصحاب الأيادي الملطخة بدماء لا أول لها، وآخرها لا يمكن تحديده! فالقتل قد يقع في اليوم أكثر من مرة، والمُدْيَةُ لا تخرج أبدًا من معطفهم، يعني ناس أهل خبرة في مجال القتل والتدبيح، وأيضًا غير محسوبين على المعارضة فرايات الطاعة ترفرف دائمًا على رؤسهم وولاء السماع للمعلم لا يعرفون غيره فلا يعصون له كلمة ولا يردون له إشارة، ولو جه على عيل من العيال!

تراصّ الجميع، مَن بالخلف بالخلف ومن بالأمام بالأمام، وامتشق الجمع أسلحتهم واضعين إياها على حصير من الرمل على يسار المعلم وضع خِصِّيْصَى في هذا المكان فقط لهذا الشأن. فقواعد نبوت تحتم عليهم بأن "مفيش حد يكون ماسك سلاحه وأنا بتكلم يا غجر".

خير يا معلم وغوشتنا؟؟

كان هذا صوت أحد الحرافيش ويدعى "مَسروع الحايح" أصغر الحاضرين وأشرس المعارضين للمعلم نبوت، فهو كثير "المقاوحة" له ولا يخشى ردود أفعاله مهما كلّفه ذلك بعكس البقية الباقية.

المعلم: أنت ما تُبتش عن الكلام قبل الأكبر منك سنًّا وإجرامًا، إيييه؟! متعظتش آخر مره لما قعدتك على النبوت؟؟

تلفت الجميع لبعضهم البعض وظنوا بمسروع الحايح وبمعلمهم ظن السوء، وأَسَرّ أحدهم لمن بجواره: "المعلم نبوت والواد الحايح" هع هع هع.

وصلت الجملة إلى مسامع المعلم نبوت فصرخ في غضب: كلامي واضح يا أوباش، أنا بقول بالنبوت مش بالمعلم نبوت، على آخر الزمن شنبي هيرف على دكر.

ثم نَصب وجهه نحوه وحرّك حاجبيه، وقال:

مُش أنت دكر يا حايح؟؟

هع هع هع هع

المعلم: المُهم يا رجالة إحنا في خطر، والزقاق كلوا معرض للهلاك بعد ما عرفت من "سواعد المشمشي" ضاربة الوداع بإن الزقاق كان مَعملوا عَمل فرعوني والعياذ بالله من ولاد الأبلسة الفراعنة، عشان قال جثة ملك كانت مدفونة في مَسلة في المكان ده، ونفس الملك ده كان واخد حتة الأرض دي زمااااااان من الفرعون الكبير قوي عشان يطلع بهرم ليه ولفراعينوا الصغيرين.

نظر الحرافيش مدهوشين للمعلم كأن على رؤسهم الطير .. والعمل يا معلم؟ قال أحد الجلوس.

المعلم: عشان نبطل عمل ولاد الكلاب دول ونتقي شرهم لازم نجمع "ديل كلب" عن كل واحد من أهل الزقاق، ومش كدا وبس ..

بسخرية نطق حرفوش صغير من الحرافيش المحيطة بالمعلم نبوت: كمل يا معلم كمل.. أمال وهنعمل إيه تاني؟!

المعلم بصوت خفيض: وا .. وا .. وا ولازم كل واحد في الزقاق راجل أو ست يعلق الديل ده مكان ما بيقعد، ونخرج كلنا كدا بربطة المعلم اللي هو أنا ونمشي في الزقاق رايحين جايين من أول ما الشمس تطلع لحد ما تغيّم، عشان ولاد المؤذية يشكو في مسألة إننا بني آدمين ويسبونا ما يؤذوناش لأنهم ما بيئذوش كلاب!

همسات جموع الحرافيش لا تتوقف، والذهول في أعينهم لامع، وأحد منهم لا يستطع أن يحرك ساكنًا فضلًا عن أن يحرك لسانه بكلمة تعقيبًا على ما سمعوه من خيال مَشفهوش حتى في سينما الأطفال بتاع مدام عزة مصطفى!

جَلْجَلَ مسروع الحايح بضحكة خليعة ملؤها استخفاف بما سمعه، وقال للمعلم:

يعني كدا يا معلم كلنا، ولامؤاخذة هناخد فيها؟

المعلم وقد ضرب حافة المخدة التي يمتطيها: هناخد فيها إزاي يعني يا حايح؟!

مسروع الحايح بتعتعة وتوتر: لأ أنا قصدي يعني يا معلم إن بالشكل ده كلنا هنعلق ديول كلاب من ورا لمؤاخذة بما فينا أنت يا سيد المعلمين ودا ما يرضناش أبدا.

ثم إن سواعد المشمشي دي مرة بتاعت ليل وملهاش غير في البوظان ومعروف إن مَشيها بطال، فمالها ومال الفراعنة وبتضرب ودع إزاي يعني؟! هو كل اللي يمسكلوا ودع ويضربوا يعرف في شغل ولاد الأبلسة الفراعنة دول، طب مانا مسكت واد الولية "معاطف وَح وَح" وضربتوا وأديني زي مانا متغيرتش ومش فاده حاجة!

ثم عاد وكرّرَ قوله:

صدقني يا معلم دي ست مولعب، وملهاش غير في الهز والذي مِنوا.

المعلم: والذي مِنوا!! يعني أنت اللي شَريف يا مسروع يا حايح، أقولهم عملت إيه معَاك بعد ما ضربتك على مؤخرتك بالنبوت هع هع هع

ضحك المعلم ومن بعده حرافيشه، واحمرّ وجه الحايح خجلًا إلا أنه لم يصمت.

الحايح: طب أنا عندي فكرة يا معلم نبوت.

المعلم: اللهم طولّك يا روح .. فكرة إيه يا حايح؟

مسروع الحايح: إيه رأيك يا معلم بدل ما نَعلّق كُلنا ديول ولامواخذة، ما نجيب كلاب بحق وحقيقي ونسيبهم في الزقاق يوم

كامل، وناخد كل أهل الزقاق ونروح على الأهرمات وهناك ندعي الملك خوفو إنو يسامحنا، ومنها برضو نكون فَضينا الزقاق عشان الكلاب تمشي فيه براحتهم ومحدش يحس بحاجة، لاحسن لو أهل الزقاق عِرفوا هتبقى مُصيبة ومش بعيد يسيبوه ويهجوا لأي خرابة تانية وفي الحالة دي مش هنلاقي حد نفتري عليه يا سيد المعلمين.

المعلم فاغرًا فاهه بضحكةٍ كشفت عن أسنانه النحاسية:

لأ جدع يا واد يا حايح، شكللك هتكون دراعي اليمين.

وهكذا ألقى مَسروع الحايح بحيلته الذئبية وخدعته المَكيرة في وجه المعلم نبوت وعلى مرأى ومَسمع من جميع الحرافيش، وانفضّ المجلس على هذا النحو.

وفي صباح اليوم التالي ذهب الحايح مُتسربلًا عباءة زوجته وبرقعها إلى ضاربة الودع سواعد المشمشي؛ ليعرف منها حقيقة ما سبق وتحدّث عنه المعلم نبوت بالأمس، فالشك يساوره في أن هذا الأمر لا أساس له والخيال يغزوه بالثُلث، على أساس إن "إشمعنا الفراعنة افتكرت مسلتها وهرمها بعد كل السنين دي"، ثم إن الكلام ده لا يخيل على عاقل وجميعنا يعلم أن المعلم فاقد بطاقة وعقل معًا، وعمرنا ما ضبطناه يومًا ما يعرف في أي شيء سوى القتل والافتراء وبس.

طرق مسروع الحايح باب سواعد المشمشي .. فتحت سواعد من فورها، فأسرع بالدخول حتى لا يراه أحد فينكشف أمره، ثم كشف عن وجهه البرقع.

سواعد بعد أن تنفست الصُعداء: مسروع الحايح مالك يا راجل؟ وإيه اللي أنت عامله في نفسك ده؟! ولا يكنش كلام المعلم نبوت عنك صح وإنك .. متأخذنيش يعني زيك زيي هههههههه

مسروع الحايح: سواعد يا مشمشي أنا مش مصدق حكاية الفراعنة دي وديل الكلب اللي عايزة الزقاق كلوا يعلقوه ويمشوا بيه رايحين جايين يوم كامل، عشان ننفضح وتبقى سيرتنا على لسان كل الحواري اللي جنبنا .. قوليلي الحقيقة وإلا ..

نظرت إليه سواعد المشمشي وتابعت حركة يده التي دُسّت في معطلفة وأخرجت مِبْضَعًا، ثم أشهر إياه في وجهها.

مسروع الحايح: إحكيلي كل حاجة بقولك وإلا هَنسِّل جسمك تنسيل.

سواعد المشمشي في حالة بكاء هستيري: طيب ابعد السلاح دا عني وأنا هحكيلك كل حاجة.

وأخذت سواعد في الحكي:

أمس جاء إليّ المعلم نبوت طالبًا قضاء ليلة حمراء معي، وبعد أن لعبت الفودكا بعقله وتخمّر تفكيره على إثر احتساء الكثير من الشعير، وجدت أنه آن الآون في أن أتخلص من هذا المجرم التليد بعد أن سلب مني كل ما جمعته من مال وذهب من وراء عملي هذا الذي يحتاج للكثير من الدهاء لينطلي على الدهماء، كل ما أقولهم لهم ويصدقوني في أن الخير كل خير آتٍ وعلى يدي بس بعد ما ترمي بياضها.

تعجّب الحايح من ذكاء المرأة في توريط المعلم نبوت وإظهاره أمام حرافيشه وكل أهل الزقاق بأنه جُنّ وطاش عقله، وهو ما نجحت فيه سواعد بالفعل، بعد أن تأكد الحايح من أن كل الحرافيش رأوا في المعلم نبوت الجنون الذي لم يكن يتوقعونه، خاصةً بعد أن كان يريد أن يلبسهم جميعًا ذيولًا رجالًا ونساءً، وصدق ما قالته له سواعد المشمشي وهي التي لا تألو جهدًا في البحث عن ممارسي الرذيلة مقابل زهيد النقود وأقلها، وهي التي لا تقول إلا أباطيل الكلام ولا تنطق إلا بأفسد الوعود .. فما لها وما الفراعنة ومالها أرداها بأن العمل يُبطله لبس الديول لأ وديل كلب .. حقًّا إنه الهراء الهراء.

خرج مسروع الحايح متجهًا صوب ساحة الشلحجية بعد أن اتفق مع سواعد المشمشي على الإتيان خلفه حتى لا يشعر المعلم بما يدبر له بعد أن أقنعها بأن خلاصها من الأخير سيكون على يده وبقية الحرافيش الذين ضاقوا ذرعًا منه ومن سلاطة لسانه وكثرة سخائمه ولم يعودوا يطيقون له وجهًا أو يسمعون له حسًّا. وصل الحايح إلى الساحة فوجد أن الحرافيش موجودون كلهم عن بكرة أبيهم كما وعدوه بالأمس، وهو الاتفاق الذي عقب دخول المعلم لمترله بعد أن ارتابوا في صحة عقل المعلم نبوت، ووسوسَ لهم مسروع الحايح بأن النجاة تكمن في الانقلاب على المعلم ومن يتشدد له.

لم يمضِ من الوقت الكثير على قدوم سواعد المشمشي التي عُرفت من دقات خلخالها النحاسي، ورنته التي لا يجهلها الحضور.

مسروع الحايح: تعالي يا ست سواعد.

جلس الحايح وسواعد والتفّ الجميع من حولهم، وبعد ساعة من التحاور والتناحر والرفض والقبول.

وافق الجميع على أن المعلم نبوت ملهوش عيش في وسطنا بعد النهاردة ولا مناص من إجباره على التروح، ولكن بعد أن تشيع سواعد المشمشي بين أهل الزقاق بأن هناك عملًا فرعونيًا ولن ينفك عن الزقاق وأهله إلا إذا انفك المعلم نبوت الأول بعد أن يخلع كل ملابسه ويعلق ذيلًا لكلب في مؤخرته .. وهو ما فعلته.

وبعد يومين سمّع الخبر بين كبراء الزقاق وصغارهم ولا يخلو بيت من التمتمة والحديث عن المعلم اللي هيطلعوه الحرفيش عريان "ملط" بعد أن يُعلق في مؤخرته ديل كلب.

وفي ظهر اليوم الثالث حاوطَ حرافيشُ المعلم سابقًا ومؤيدو الحايح حاليًا مترل المعلم نبوت، وطالبوه بالخروج ليحادثهم ويحادثوه.

فخرج عليهم المعلم: مالكم يا حثالة المناطق المعفنة؟!

الحايح: أنت لازم تخرج من الزقاق يا معلم عشان تخلصنا من عمايل ولاد الأبلسة الفراعنة دول، خاصة بعد ما قالت لنا الست سواعد بإن العمل مينفعش نبطلوا إلا بالراس الكبيرة يا كبير، وإذا كان على ديل الكلب فأنا جهزهولك أهوه.

إنزل بقى لأحسن دول ممكن يسخطوك يا سيد الناس.

المعلم بوجهٍ مُكفهر: أنت بتقول إيه يابن الحايحة!!

وهُنا كَشفت سواعد المِشمشي عن نفسها وقالت: كلام مسروع الحايح كلوا صح، وأنت لازم تخرج من هنا يا نبوت.

ولمزَ الحايح رِفاقه من الحرافيش، وأمرهم بأن يحضروه.

فتبادر الجميع على المشاركة في هذا المشهد الحصري دون مهابةٍ من النبوت، وخلعوا عنه ثيابه قبل أن يُلبسوه ذيلَ الكلب، ثم ألقوا به خارج عتبة البيت، فارتمى مبطونًا على الأرض مُحدِثًا ارتطامًا قويًّا مِن فرط ثقل جسده، فعاجله مسروع الحايل بضربة من نبوت كان يحمله على ظهره، ثم وكزه بمقبضه في مؤخرته وقال: دا النبوت يا معلم نبوت مش أنا. وتمايل الجميع بالضحك والسخرية، وارتفعت أصوات الزغاريد من نوافذ الزقاق الصغيرة، وبشر مسروع الحايح كل أهل الزقاق بأن "الحاجة الساقعة علي حسابي النهاردة"، فهمهمَ لهُ الجميعُ بالدُّعاء.

أزمة منتصف الليل

لم يتمكن من الجلوس داخل غُرفته مَكتوفَ الأيدي، يشعُر بجسده وقد أضناهُ الحُزن، وعينيهُ التي أرهقهما البُكاء، ويديه التي لا تكُفُّ عن الارتعاش، ورجليهُ التي ترطتم بشكلٍ مَلحوظ واضح أمامه، وقَدِّه بأكمله يبعث بشكَواهُ إلى مَولاه.

تدبُّ الأحزانُ بقلبه كَما تدبُ دقات قلبه، اكتشف اليوم فقط أنه لا يقوى على أن تُمسّ حبيبتهُ بأيِّ شيء، والكلمة التي تُحزن حبيبته تيقّن بداخله أنها نفس الكلمة التي تمزِّق أحشاءه، حتى وإن كانت هذه الكلمة خرجت من أقرب الأقربين لها.

غَريبٌ هو ذلك الشاب الذي يخافُ ويرتعش قلبهُ وَيَميدُ كُلما شَعَرَ بخوفها وحيرها، فَهي حبيبة روحه ومَن أعطتهُ قلبَها، فأعطاها هو جُلَّ نفسه لتكون بين يديها وطوع إرادها.

تدورُ عَقاربُ الساعة وهو لا يكاد يستوعب ما حدث!

يُخرِجُ هاتفه بين الحين والآخر ويتفحص ما حوته تلك الرسالة التي أتت على غير ما يتوقع. وقتها كان ذلك الشاب في طريقه لمعاينة بعض الوحدات السكنية التي سيقطن بها ومحبوبته. ارتطمت الكلمات برأسه وشعر أن هناك مَوجةً من اللا إدراك قد انتابته، فَوَقْعُ الكلمات عليه -بلا ريب- شديد.

يتلهفُ ويلتوى وجعًا مِن فرط مَسعاه نحوَ سماع صوت حبيبته إلا أنه يتذكر أن هاتفها قد صودرَ مِنها فينكص حزينًا مَرضوضًا.

اليومَ وقد خرجَ مُسرعًا يتلمس وجودها في أماكن يعرف هو أنها بالتأكيد تُمر منها، ينظر في وجوه الأُخريات علّه يجدها بينهنّ، إلا أن شيئًا من ذلك لم يحدث، والعجيب أنه كان يعلم مُسبقًا أن شيئًا مّما يتوهمه لن يحدث، فهي حبيسة البيت لا تستطيع أن تُحركُ ساكنًا مِن الكلام، فَضلًا عن الحركة والتنقل الجسدي هُنا وهُناك!

يسير الآن الشاب مُسرعًا مُخترِقًا لكُل الطرقات التي كانت تسير فيها والأماكن التي يظن أنها كانت ترتادُها. أَتعبَهُ المسير فقرر الجلوس على إحدى الكافيهات، وقتها كان يَحستي بعض حبات القهوة، فالصداع يكاد يفتك برأسه مِن فرط البكاء والنحيب الذي لم يفارقه منذ يومين على إثر هذة الرسالة وهذا الحادث، فأخرج جهاز اللاب توب حتى يُراسلها، فوجدها تقول له: "أنا خائفة"، أنت هنا؟؟ محتاجة أحس إنك معايا.

بَكى قلبه كثيرًا بعد ما قرأه من كونها تستجدي تواجده حتى تشعُر باللا خوف، وهي لا تعلم أنه قاب قوسين أو أدنى مِن مَنزلها، فراح يَدلُف نحو مُراسلتها ويبعث لها برسائل تطمينية مِن عينَة "أيوة يا حبيبتي أنا موجود جنبك، دانا حتى مِشيت من قدام بيتك، وأنا قريب منك أوي، متخافيش أنا معاكي، متَقلقيش أنا بجوارك، وتأكدي أنه مَهما كانت المسافات فحبي لَكِ يزداد ويتكاثر شأنه في ذلك شأن جميع الكائنات".

فجأة يُومِضُ الهاتف مُعلنًا عن اتصالٍ عاجل، وتضيء الشاشة على اسمها، فأخذته رجفةٌ ما مِن فرط قوة المُفاجأة، وتلفت حوله يمينًا ويسارًا، فأدركَ أنه لا يحلم وأنّ ما يحدث شيءٌ واقعي لا يمت إلى عالم الأحلام بأي مَدى، وأن أضغاث الأحلام لا تزاحمه الآن.

فأجاب سريعًا وردّ على ندائها "إزيك يا حبيبتي؟"

قال تلك الجملة وهو يُخفي نبراته الحقيقية عنها، ودموعه التي تيبّست داخل مُقلتيه وكادت تفتك به على مدار يومين متتالين مِن فرط البكاء، ويبدي لها تماسكًا لا يملكهُ في حقيقة الحال!

انتهى ..

اسم الدلع "مواطن"

يحكي ابنه عنه فيقول: "أبويا، ومين يقول أنا زي أبوك"، بعدهُ تخطف زوجته مسار الحديث فتُلوح بصرختين يعقبهُما نهنهةٌ تتخللُها الدموع "جوزي، ومين يقول أنا زي جوزك"، لا شك أنّ دلال أُخته "هيّ رُخره" كان لها دورٌ في تلك "الهيصة" المُنظمة، والتي أذكمها البُكاء على أخيها، فزحزحَ مِن صحة ووضوح مَخارج النُّطق عندها: "أهويا، ومين يقولك دانا أهوكي"!

تُشير مُراسلة إحدى القنوات التي أصرّت على التواجد ولم تخشَ أن ينالها مكروه على إثر انطلاق تلك الطلقات الغاضبة التي هيجت أسراب الطيور، وقضت أحلامها في استرسال الطير أعلى منزل المواطن حمدان –إلى زُملائها بإيقاف التسجيل حتى تتم مراسم تشييع جُثمان الأخير، بعد أن انفتح باب إحدى الغُرف العلوية التي تحملُ في جوفها الجُثمان كي يُغسل ويُكفن، ونفذَ منها أحد أقاربه مُسرعًا، ومُنحدرًا إلى أسفل على دَرجاتِ سُلّمٍ مُتسع، ليُشبعهُم سُبابًا ويُلحقهُم بوصلةٍ للردح لم يُجدِ معها اعتراض، قام على إثرها حاملُ الكاميرا بالتنحيٍ جانبًا مُتظاهرًا بالانشغال والعبث في أنفه، في الوقت الذي هرولت فيه المُراسلة جريًا صوبَ تَجمُّعٍ للحريم اللاتي أخذهُن رائحة "البيرفن" المُنبعثة مِن "البت اللي بتطلع في التلفزيون" كما قالت امرأة يبدو أنها تعرفت عليها!

يُقسمُ أحد موظفي السجل المدني بأن حمدان حينما أتى إليه: كان على خير الحال وصحته تهد جبال، دا كفاية فحل البصل اللي كان نازل أكل فيه قدامي من غير لقمة عيش واحدة.

وتقول السيدة مُنيرة المسئولة عن ختم الأوراق بنفس المصلحة بأن حمدان أتاني قبل ذلك اليوم وطرح عليّ بعض الأسئلة ليس منها "إزاي يكتب في شهادة الميلاد إن اسم الدلع مواطن بجوار اسمه الحقيقي حمدان"!

انتقلت النيابة العامة لتُحاصر مكتب رئيس السجل المدني والذي طاح وصاح في هيئة النيابة الموقرة: "بلاش تخلّوني أعملها معاكم إحنا رُتب زي بعض يا بهوات".

وكيل النيابة: أنت مطلوب للتحقيق سيبنا نعاين المكان اللي الراجل طبّ فيه ساكت!

رئيس المكتب: دا راجل مجنون!!

وكيل النيابة: يعني أنت مُعترف إنك لما مسكته من رقبته مقدرش يتنفس ومات في إيدك زي ما أثبت تقرير الطب الشرعي؟

رئيس المكتب: أنا مجتش عنده، وبعدين أنت ناقص تخبطني حُكم في مكتبي!

وكيل النيابة: على العموم أنا ما بديش أحكام، دا شُغل المحكمة، سيبنا احنا بقا نشوف شُغلنا.

رئيس المكتب: بقا على آخر الزمن أروح في حتة جربوع زي ده!!

أمرت النيابة بالتحفظ على المُتهم وهو ما قامت به الداخلية دون تمحُّك لأفرادها على غير عادهّا، وأودعت هذا الضابط الذي يرأس مكتبَ سجل مدني حي الأزبكية في إحدى الغُرف المُنفردة لحين البتِّ في أمره ومعرفة ما ستؤول إليه "الأيام السودة اللي ما يعلم بيها إلا ربنا يا باشا"، قالها أحد أُمناء الشرطة، فردّ الضابط: الله يخرب بيته، دا مجنون، إيه يعني اللي كان عاجبه في كلمة مواطن عشان يغير اسمه من حمدان لــ "مواطن"؟!

مانشيتات الصُّحف وجدت ضالتها في هذا الضابط، فكثرت – بلا شك– مبيعات كل الجرائد التي تناولت أحداث مقتل المواطن "مواطن" على يد ضابط الشرطة بعد أن رفض الأخير تغيير اسمه من حمدان لــ "مواطن"!

وفي صباح اليوم التالي أُقتِيد الضابط إلى المحكمة، واستُحلفَ على أن يقول الحق، فحلف.

القاضي: قولي يا حضرة الظابط، إيه اللي حصل بالظبط؟

رئيس السجل: يا فندم أنا كنت قاعد في مكتبي لا ليّا ولا عليّا، فجالي المدعو حمدان ....

جَلَبة شديدة وحذاء يستقر على وجه الضابط "قولتلك أبويا اسمه مواطن مش حمدان، إنتوا هتحرموه من حلمه ميت وحي!!"

القاضي: عليّا النعمة هطلعكوا كلكوا بره يا جزم.

"الدفاع يستنكر تلك اللغة السوقية التي تحدث بها القاضي، وهي حالة شاذة رُبما تكون هي الأولى من نوعها في كل محاكم مصر"

القاضي: اتفضل يا حضرة الظابط.

رئيس السجل: بعد كدا حضرتك طلب مني إنوا يغيّر اسمه من حمدان لـــ مواطن، فقلتلوا طب وإيه الفكرة؟! خليك حمدان زي مانت وكدا كدا أنت مواطن يا سيدي، مش أنت من مصر؟ قالي: آه، قولت له: تبقى مواطن!

القاضي: عظيم، عظيم، وبعدين..

رئيس السجل: ما وافقش يا فندم، فقلتلوا طب ادخُل للأستاذ طارق جوه المكتب وشوف المطلوب وهاتوا واحنا نغيرلك اسمك، سابني ومشى وبعد أقل من عشر دقايق لقيتوا جايلي وبيقولي أنا غيرت رأيي أنا عايز اكتب في شهادة الميلاد بإن اسم الدلع مواطن واسيب اسم حمدان زي ما هو، فقلتلوا: لأ بقا دانت جاي هزر معايا، وأمرت أحد الموظفين برميه بره السجل.

حذاء آخر يستقر على وجه الضابط مَشفوعًا ببصقة على إثرها يأمر القاضي: "طلعوا العيال ولاد الـــ ..... دول بره"

الدفاع: يا فندم دي مبقتش محكمة كدا، ولا يجوز هذا الأُسلوب الرديء في التعامل!

القاضي للدفاع: هسمع صوت أي كلب منكم هخبطكوا 24 ساعة حبس.

أحد المحامين بامتعاضٍ يهمس إلى زميلٍ له: "طب لما يطلعلي بره"

القاضي: لامؤاخذة يا حضرة الظابط، اتفضل سعادتك كمل.

رئيس السجل يُلاحظ هذا الاحترام الزائد والتحيز الملحوظ المُتبع من القاضي، ويعاود الكلام..

بس حضرتك وقلت بعد كدا إنوا كان حالة من الحالات اللي بتترمي علينا كل يوم وراحت لحالها، جيت تاني يوم لقيته جايلي هو وشوية الصيع دول مُقتحمين المصلحة بالكامل وهات فينا ضرب!

القاضي بتبرم: أمال شوية الحوش دول ليه بيقولوا إن مَعاليك خنقته لحد ما طبّ ساكت في إيديك؟!

رئيس السجل: سعادتك تقرير الطب الشرعي قال: إن حمدان مات باختناق في التنفس مش باختناق من إيدي!

القاضي: تصدق فاتتني دي، أمال أنت هنا ليه؟!

رئيس السجل: علمي علمك حضرتك!

القاضي: أمرنا نحن قاضي المحكمة المنوط بها الحُكم في قضية قتل المدعو حمدان .....

تقاطعه أصواتُ تَدَافُعِ أهل المواطن "مواطن" الذي أغضبهم هذا الشكل الهزلي مِن هيئة التحكيم الممثلة في القاضي، ليندس لهُ عن

قربِ أحدُ أبنائه الذي بصق على وجهه وألقاه بما في يده، ليستقر هذه المرة الحذاءُ على وجه القاضي: "قولتلك أبويا اسمه مواطن مش حمدان"!!

مَجهولٌ لا يعرفهُ سِوانا!!

أدركتُ الحقيقة، فلن أبحثَ عن غيرها. كلماتٌ على غيرِ دُلولةٍ قالها الفتى دون إيضاحٍ، ثُم استتبعَ ..

لم أكن أجنحُ بخيالي يومًا نحو الإفاقة على هذا الواقع المؤلم، المُرقع بصدفات الحيرة، والغاطس في براثن التقزز والكآبة.

زينب هي أمي الكفيفة صاحبة الإثني عشر عامًا من الظلام، فقد أمضت قبل ذلك أربعين عامًا لم يكُن يُضاهِي جمالُ عينيها ورؤيتها الثاقبة سِوى جَمال خيوط الشمس وإشعاعاته حِينما تنحسرُ مُعلنةً الاستنفار للرحيل!

يشرعُ أبي دائمًا في تعنيفها، ومُعايرها بالعمى، وبأنها "زي الهم على القلب، إمتى ربنا ياخدك يا شيخة ويريحنا منك".. هكذا يقول. فتصمُت أمي، وتتخذُ مِن مَلابسها وشاحًا تسحبهُ بعنفٍ لا يعرف الرفق حتى تُسرع في التستُّر والاختباء مِن واقع أنها عمياء!!

ينتابها الضمور والحسرة مِن كونها ضريرة تُعايرُ في هذا العُمر مِن شريك الحياة "وأبو العيال"، الذي جُنَّ يَومًا ولعبت الفودكا في عقله المخمور دائمًا قبل أن يتروي ناحية شباك غرفتهما الموصود، فاتحًا إياه ليكشف عن رغبتة في إلقائها مِن ها هُنا!

تصرُخ أمي دون جدوى

تُهرولُ في زوايا وأركان شقتنا الصغيرة دون طائل

تشقُّ جُدران جسدها بصوتِها المُتوسِّل غير أن الوقت في ساعات مُتأخرة فلا مُستمع ولا مُجيب. وسُرعان ما أستسلمت قواها الخائرة لجذبات وسحبات وعلامات الشر المُرتسمة على وجه زوجها الأشر.

كُنت في الخامسة وقتئذ، أُتابعُ استجداء أمي بِيْ وأرى مَلامحها المُحتضرة التي لا تزال تَكسو وجهي الصغير كلما تذكرتُها! اتجهتُ مِن فوري نحو هذا الشباك العبوس الذي سيبتلعُ أمي عمّا قليل؛ لأتمكنَ منه فأغلق فتحاته، ودنت أختي التي تكبُرني بخمسة أعوامٍ أُخرى لتُساندني في تحقيق هذا المُراد، وتحطيم طموح أبي في الإجهاز على أُمنا، غير أن أبي أدلفَ نحونا بضراوةٍ، وضاعت الأبوية مِن قلبه كما ضاعت عقلة بفعل عناصر الخمر، وأشبعنا رطمًا في بعضنا البعض وأقسم على أن الموت سيكون جزءًا مَوفورًا لنا لو لم نتراجع، ثم أعقب كلامه بركلة ختامية بعدها سقطتُّ أنا وأختي على الأرض بقوة، فالتحفت هِيَ بي وأجهشت في البُكاء، وارتميتُ أنا في حضنها الصغير وبين نَهديها العاريين مِن أيِّ أنوثة، فضمتني وأخفت رأسي بين مَلابسها. بعدها جاء صوتُ أبي وقد انفضّ للتوِّ مِن مَراسم قتل أمي وإمعانه في الإيذاء: "أنا داخل أنام يا ولاد الكلب ومش عايز اسمع صوتكم"

فأسرعنا ناحية الشُّباك واللهفة والخوف يَكادان يفتكان بنا، فإذا بأُمنا وقد طمرَت وجهَها الدماء غير أنها لا تزال على قيد الحياة.

وهددنا بأن كسر السُكات عن جريرته الدميمة سيواجهنا بموتٍ مُحقق لن يُخطئ أجسادنا الهزيلة.

وضاع حقُّ أُمنا في العيش "على نصفِ حياة" بين فعلة أبينا وصمتِ أفواهنا، حتى قُيدت الجريمة ضِدَّ مَجهولٍ لا يعرفهُ سِوانا!!

مَولانا الراعي

تتلفّحُ البلدة بأجواءٍ يكسوها اللون الأخضر.

تنشدُ الطيور فيها وتُحلّق بلا مُزاحمةٍ مِن بني البشر.

قاطنوها خارج نطاق الذكاء، أو تحسبهم هَكذا مِن فرط السجية التي تصل بهم إلى حد الغباء، والتلقائية التي تجعل الواحد منهم في احتياجٍ دائم إلى أن يتبرأ ويبرأ مِن هذا الجفاء في التفكير والجمود في إشغال العقل.

الصلاة تجمع الشّتات

الصلاة تقول حي الفلاح

الصلاة عماد المُسلمين

ثلاث عبارات أصبحت مِن المُسلّمات، الجيمعُ هُنا يدخل المحراب، الجميع هُنا يهرول فور سماع الأذان، حتى البغايا تَرَاهُنّ ينسحبنَ مِن بين أرجل الرجال؛ ليؤدين الصلاة وما يلبثن في العودة إلى فروجهم، حيثُ الولوج وآهات الحُب وتلك الأنفاس الساخنة والشهقات الحارة!

الكُل يُصلي

الكُل يذهب إلى أصحاب الوصال بآل البيت

يسدل الليل خيوطه السوداء على أصوات تراتيل القرآن المُنبعثة مِن المنازل والمحال، وترانيم الراقصات تشقُّ الفضاء وتقف في المواجهة

كلا الأمرين له مُريدوه..

هناك من يتمسحون بالعارفين للوصول إلى الإله، وهناك مَن يستمرؤون تمايل الغواني فيُمطرونهم بالأموال كي يجلسون في آخر الليل بين فتحات النساء.

مَجّت الشمسُ ريقها، وانتشر أهلُ الليل للعمل.

العمل عبادة.. هكذا يتشدقون.

وإمتاع النَفس بالهوى واحتساء الخمور لا يُغضب الرب.. هكذا يقولون.

عُرفت البلدة بأهلها المُتغافلين أو المُغفلين.

وذاعت أخبارهم بين البلدات المجاورة تحمل أساطير وحكايات غرائبية، مِنها: مَا يستسيغه العقل فيُصدقه، ومِنها ما يدخل في بوتقة التُّرهات.

ولوحظَ أن الوافدين على تلك المساحة القروية يتكاثرون، مِنهم مَن يأتِي به شبقُهُ بعد أن سَمع عن وفرة المومسات ها هُنا، ومِنهم مَن يجره الفضول فيحضر هو وأسرته في زيارة "تعارفية".

لا تُداني كثرة الشتائم والسباب المُنطلقة مِن ألسنة الناس في البلدة إلا كثرة التسبيح والحوقلة .. والاثنان في نَفَسٍ واحد!

"عسقلان" أحد سُكان البلدة القُدامى، والذي اشتهرَ عنه عشقه لمؤخرات السيدات وزيجاته التي لا تُكمل الثلاثة أيام، وهو مُعدل

كافٍ للتعرف على جسد أيِّ فتاة "خام"، بعدها يرمي بزوجته بعد أن يَفُضَ خاتَمها ليبحث عن غيرها، وهكذا دواليك.

وفي إحدى الأيام كان الأخير في طريقة إلى قهوة الزاهدين والفاجرين "كما يسميها الأستاذ بيومي المُتعلم الوحيد بين أكوام الجُهلاء"، فاستوقفته "دلال" صاحبة البغاء الرخيص وإمتاع الشهوة "بالتقسيط"، فهي دائمة القول بأن "لجسدك عليك حق، وهو فيه حق أكتر يا أخويا مِن إن الراجل والستِ من دول يلاقوا في بعض راحتهم"

عسقلان: سبيني في حالي أنا همدان، الوليه بتاعة المرة اللي فاتت هدت حيلي.

دلال: يا راجل متقولش كدا دانت سبع، ثم أطلقت ضحكة رقيعة.

عسقلان وقد حدجها بدلع: بتروديني عن نفسك يا منقع البغاء.

دلال: اسم الله عليك وعلى شرف أمك ههههههههه.

وفي تلكَ الأثناء مَرت مَجموعة مِن الدواب يقتادهُم رَجلٌ أعمى "كفيف" غير أنه ذو بَصيرة ثاقبة وحاسة بشرية لا تُخطئ .. "يحكي عسقلان"

فأخذتُ أتتبعه والعَجبُ يَملأ عقلي مِن كون كيف لهذا الكفيف يسوقُ هذا القطيع الذي لا يُرى له اعوجاج ولا يُسمعُ منه اعتراض يتمثلُ في الانحدار بعيدًا عن توجهات الراعي الكفيف؟!

لفت هذا الراعي انتباه عسقلان ما هذا؟!

غير أن دلال تطغوا عليها الحاجة للمضاجعة فضمته بين شفتيها، فلثمها وأسرع تاركًا إياها تصيح: "عسقلان أنت رايح فين"؟!

صورة الراعي لا تزال تترنح أمام عسقلان.

وشكله غير مألوف فأهل البلد أنا أعرفهم واحد واحد .. قال:

ما الحكاية إذن؟!

الثقافة والجهل آفة بلدتنا يا هوووووه إفهموا بقا!

لا ينفك الأستاذ بيومي عَن إرسال ومضاته التحذيرية هذه متى رأى الشذوذ، ووقع بين يديه مَن يقبل الوعظ.

يُكرر في لا وعي "سيُخسفُ بنا وبقريتنا يا عالم فاجرة"

مَتى صادف في قارعة الطريق مَن يعتلي امرأة وفي يده حبات المسبحة يتسديرها بين أصابعه .. علّه يُسبح الله!

يؤمن بيومي بالله ويحبٌّ آل البيت، ويرى في معاوية الخروج عن الملة بعد أن حاك الدسائس لعثمان بن عفان فأرداهُ قتيلًا، وفي النصارى الضلال، ويضمر للمسيح كثير الحُب، ويهيمُ عِشقًا في طهارة يوسف.

غير أن ابنه راشد يرى أن الله مَحض أُسطورة، فهذا الكون لا أحد يمطتيه، ولا أحد يُدير أمره إلا القابعون فيه مِن بني جلدتنا!

الاختلاف لا شيء عليه،

والخلاف أنا لا أُجيده،

وأهل البلدة لا يعنيهم الله، فهم يركعون ويسجدون، وأيضًا يزنون.. ثم ماذا عن الله؟!

ينتهي دومًا الحديث بين الأب وابنه على تصدير هذا السؤال الفلسفي .. أين الله؟!

بيومي مُخاطبًا راشد: يا بُني، إنه الله كيف لا تعرفه؟!

فلم أعهده يومًا تاركًا لي أو عادلًا في حُكمه عليّ، وإلا لكُنت الآن أَسبح في اللا وجود، وأجول في اللا حياة، حيث اللا معقول واللا مُدْرَك ، وغير الحسي وغير المفهوم!

راشد: هو ده أصل الجدال.

(يتجاهل بيومي قول أبيه ويردف)

لم أعيه دَهرًا صادمًا ليّ، مُتجاهلًا لما أُفكر فيه مُختلفًا مع مَا أسعى إليه.

يقاطعة راشد: عظيم، ولكن .. أين هو؟!

بيومي مَدهوشًا : أفلا تؤمن؟!

راشد: حتى لو أمنت أنه الإله.. ما الطائلُ إذن؟!

فأنا أريد أن آراه، كي أخاطبه، كما قرأتُ عن مُخاطبته للأنبياء حتى يطمئن فؤادي وترتاح سريرتي.. أليس هذا حقي؟!

وهل هُناك أنبياء؟!

أجبنى يا أبي، أين هو الله؟!

يستنكف بيومي .. يستكبر .. يرى في الرد على هذا السؤال الجدالي الكلامَ غير النافع، والحديثَ فيما يكثرُ ضرره ولا يعود عليه بالنفع "فأنا مريض وصحتي لا تقوى على مُجابهة هذا الكُفر".. يقول ويقرر الصمت مُنصرفًا!!

يقسم عسقلان أمام مجتمع الزاهدين والفاجرين في تلك المقهى المُتطرفة حدودًا وأفعالًا أنّ ما رأه حينما كانت دلال تراوده عن نفسها حق!

عسقلان: يا شوية مساكير أنا شُفت بعنيا الراعي الكفيف وهو حواليه الغنم وخيرات الله مِن جمال وخلافه، وفي المكان اللي يشورلهُم عليه يروحوه طوالي.

يتمتم الجمع ويُحدثُ حالة مِن الجلبة مِن كون "إيه ده الكلام اللي بيقولوا عسقلان دا شكلوا مش في الوعي يا جدعان"

عسقلان يلعن سنسفيل الكودية الردئية التي أخمرت عقول هؤلاء "المحمونين" .. هكذا نعتهم قبل أن يهم بالرحيل.

(الأنفارُ المزدحمة بهم جنبات وزوايا المقهى كانوا أسرع في صدهم لعسقلان قبل أن يغيب)

اهدى بس يا عسقلان الأمور تتاخد بالهوادة مش كدا!

عسقلان: إنتوا عالم " ...." ولاد "........." والراعي ده أنا مُتأكد إن وراه سر، دا شكلوا مخاوي!

انفضَّ المجلس بعد إسهابٍ في الحكي عمّا رأه عسقلان، وجاء القرار بتتبع آثار الراعي الكفيف، حتى يتثبتوا مِن كيفية ذهابه وإيابه،

وكيف له وهو الأعمى بلا نور، العاجز بلا عن النظر وتحديد المسارات القدرة على التَّحكُّم في هذا القطيع العريض، دون خشية إحداث ضيعة واحدة منهم أو نُقصان وماذا عن الذئاب ألا يخشاهم على نفسه؟!

وقف عسقلان في نفس موضع الأمس حينما مرّ الراعي، ومعه لفيف يتسترون جميعًا بظلام الليل.

يهمس أحدهم: أنا شايف فيه خيال جاي من بعيد.

عسقلان: هُسسسسسسس ويشير بيده على فمه ما معناه "مش عايز حد يتكلم"

يقترب الخيال ..

تتضح الرؤية شيئًا فشيئًا.

يظهر الراعي بلحية بيضاء مُغبرة، يتعمّمُ بشالٍ رفيعٍ مُزين، يلتفُ حول رأسه بشكلٍ مُحكم، عيناه غائرتان، جسده فارع، وفي يده اليمنى عصاه يصوبها أمامه، مَتى أشار إلى القطيع يمينًا يذعنون، شمالًا يتحركون بلا انحراف.

عسقلان بصوتٍ خفيض: ها جالكم كلامي يا يا ولاد المخمورة.

مرّ الراعي بجوارهم فاستمعوا له وهو يناجي

(وأنا الضريرُ وعيني تقبعُ في يدي

وأرى بنوري ما يراه الرائي

اسمي نجيبٌ ووالدي هو ابن عدي

أُبرئ العليل وهاكمُ أسراري)

إنه نبي إنه نبي.. صاح عسقلان!

ينسحب الجميع وكأن على رؤوسهم الطير.

لا أحد يصدق ما رأوه.

تنبعث رائحة الخمر مِن أفواههم حقًّا إلا أن عقولهم حاضرة، وأحد منهم لا يتشكك في عينيه

يعترضون على قول عسقلان مِن كون أن هذا الراعي نبي!

مفيش إلا الأستاذ بيومي .. جملة خرجت مِن مجهول وانصاعوا لها دون تردد.

عسقلان: وكتاب الله دا نبي يا أستاذ بيومي.

بيومي: اسكت يا عسقلان نبي دا إيه مفيش كلام من ده.

عسقلان: طيب تفسر بإيه كلام الراعي دا بيمشي عمياني .. لأ.. وكمان بيرعى أغنام.

بيومي: إنه من العارفين بالله.

عسقلان: يعني إيه؟!

بيومي: أكيد الراعي ده علاقته حلوة مع ربنا عشان كدا بيكون ليه بركات، شكل ربنا عايز يتوب عليكم من الهباب اللي بتطفحوه.

عسقلان: أنا حاسس إني اتولدت من جديد.

بيومي: ههههههه دي شكل بركات "مولانا الراعي" حَلّت.

شاعت أخبار "مولانا الراعي" ولاكت الألسنة سيرته وما به من أسرار، سيما وأن أضغاث الأقوال وجدت بين أهل البلدة بيئة رخوة، الكلامُ فيها لا حساب عليه، والحديث المُثار بينهم يُصدق دون تحقيقٍ وانتظار!

ولاحت علامات الكَف عن ممارسة المحارم والبُعد عن الزنا الفاحش في الطريق، سيما وأن الغواني بِتْنَ يتحركنَ في الشواع بحثًا عن المُتعة ولو بالمجان بعد أن كانت الوفود تأتيهم أفواجًا أفواجًا ويتجرعونَ أموالًا باهظة مقابل النظر إلى أرداف الأخيرات.

راشد هذا الشاب المنكرُ لوجود إله يحكم هذا الكون يخرج عن صمته.

يعارض أباه القائل بأن هذا الراعي عارف بالله؛ لأنه لا يوجد إله كي يُعرف.

ينتشر في الباحات ويخالط الناس: يا عالم أنتم مضحكوك عليكم ومخدوعين .. دون أن يُلقى له بال.

بيد أن البلدة رأت في مولانا الراعي طريقًا للعودة،

فلا زنا، ولا خمور، ولا غواني، ولا مومسات،

ولا أصوات تزاحمُ أصوات الله بعد اليوم.

"مولانا الراعي يا مولانا الراعي افتح لنا بابك يا سيدنا يا جابر القلوب وهادي النفوس وشافي الأمراض"

تصلبَ أهل البلدة مُجتمعين أمام مترل مولانا الراعي .. في انتظار أن يخرج إليهم، يُطل ببركاته عليهم.

ووحده راشد يهتف: يا بهايم يا بهايم فين راحت عقولكم؟

فيجيبه والده الأستاذ بيومي: يا بني اسكت ربنا يهديك إحنا مصدقنا الناس ربنا تاب عليها.

راشد: هههههههههههه دول شوية بقر وأنت أب حمار.

يزمجر الجميع من كلام هذا الصبي العاق لوالده!

وتشرئب له رقاب الحاضرين: ياض اسكت ياض عيب كدا!

راشد: طب يا شوية مغفلين افتحوا السُّرة دي لو عايزين تشوفوا مولاكم الراعي!!

مولانا الراعي!

مولانا الراعي هنا! إزاي يا معتوه؟!

راشد ينفجرُ ضاحكًا، ويتلوى فرحًا وسُخريةً، ولا يُجيب.

يتكاثر الناس على تلك السُّرة، يكادون يتقاتلون على أولوية الكشف عمّا بداخلها.

يصرخ عسقلان: ورويي السُّرة دي فيها إيه؟!!

تُحملق الأعين

تدق القلوب

الكُل يشاهد انحلال آخر عُقدةٍ في السُّره

الكُل ينتابه الشعور بالتوله والتوهان

وكانت المفاجأة: إنها ذات اللحية البيضاء المُغبرة التي كان عليها مولانا الراعي، ونفس الشال الرفيع المُزين الذي كان يلفه حول رأسه!!

يرنو الجميع إلى راشد ..

راشد مُخاطبًا إياهم: وآدي العصاية اللي كانت في إيده، فيقذفها عليهم، وما يلبث أن يتركهم ويركض، وهُم مِن وراءه: خُد هنا ياااااض!

غداء في حضرة الشيطان

(1)

أحسّت بنبساته الخيلاء قُرب إرسال السماء لوشايات المساء، فأشغلت نفسها بعيدًا عنه، وادّعت صناعتها لبعضٍ من المُعجنات الشهية تلك التي يحبُّها زوجها، قبل أن يُهاجمَ خَلوتَها ويطلبها بقبح كلامه ويَصِمُها بالإصراف في كُل شيء عدا قبلات الليل وأحضان الظلام!!

***

(2)

"مريم زوجة ميشيل"

هذا كل ما يعرفه زُملاء البنايات المجاورة لهم، وتحكي منال السحار إحدى العاملات بفندق لافوار السياحي فتقول: بأن مريم تتسم بالضحك المفرط كما أن وجهها لا يخلو من تجاعيد البهجة، على النقيض من ميشيل فهو دائم العبوس.

دوّت التساؤلات من قِبل جهات التحقيق، ومعذورن أولئك الذين يقولون بأن المظاهر تبعث حقيقة المُتظاهرينَ بها، فميشيل كانَ قد رُسمَ مُنذ عدة شهور ويستعدُ الآن لرداء عمامة الباباوات بعد أن أطلق بذور وجهه ذات اللون الذهبي، وأسدل على صدره ينبوع

الحق وصليب المغفرة، ومع ذلك أينما تواجههُ تراه وقد أوصد الفاه واليدين والوجه مُجتمعة.. "هكذا تقول منال"!

إجراءات الدفن كانت تسير على غير هُدى. نعم.. إنها مريم تلك المُغماة بشاش الغموض والرحيل، المُكفنةُ بالمجهول، ومِن حولها لفيفٌ مِن الأحياء، وبالقلب منهم يقفُ ميشيل يبكيها دونَ دموع!

يتبادرُ مَن بالخارج مِن هؤلاء المنتظرين لجثمانها مِن الأهل والأقرباء، وكذا مؤرخو الحدث مِن حاملي الكاميرات. نعم.. فالأمر جلل والواقعة تمت في دماسةٍ صامتة تمامًا كتلك الأفلام التي لا تسمعُ فيها إلا صوت السكوت .. وهكذا جاء الموت!

يقسمُ أحد الرجالات بأن الأمر مُدبر، واستعان على رأيه بما يخرج به ميشيل من هجومٍ على الكنيسة فينطق عنها ما لا تُطيق ويخوضُ فيها بما لا يُرضيها "وبصراحة الناس بتقول عليه إنوا مش مسيحي أصلًا"!

التمتمة تحتلُ أرجاء المُستشفى التي نُقلت إليها مريم بعد أن فُصلت رأسها عن بقية الأعضاء، والصلوات تُطبعُ على الصدور جنبًا إلى جنب بمُحاذاة الصليب.

"يا رب، صبّر ميشيل بجاه حبيبك النبي"

إنه صوت الأستاذ عرفات الجار الأول لميشيل والمسلم الوحيد من ناحية الشمال له بمنطقة الشافعية، تلك الأخيرة التي سُميت بهذا

الاسم اعتقادًا من قاطنيها بأن الإمام الشافعي كان يتواترُ على هذا المكان تباعًا طمعًا في تحصيل العلم!

انهمرت النظرات على هذا الصوت المُسلم، وبعُدت الأيادي عن مُلامسة الصليب، وكأنهم لا يُريدون ممارسة تلك الطقوس أمامه. لاحظَ الأستاذ عرفات مؤدّى ما صنعوه غير أنه لم يكترث، واستمر في البوحِ بالدعاء والاستنجاد بالإله بأن يرحم مريم.

***

(3)

يبدو أن تشريح الجثمان هو الأمر الوحيد الذي ينال قدرًا من السهولة واليُسر حتى الآن، فمُجرد أن نفذَ جُثمان مريم إلى غُرفَة الاستبيان عن أسباب الوفاة أدلف أحد الأطباء نحو ميشيل ليطلبَ منه مرافقة الموت الذي ألّم بزوجته إبان القيام بعملية التشريح بعد أن شُق صدرها وتفتحت جل جوارها، وهي الحسناء المغموسة في رداء الحياءِ والخجل.

تقدّم ميشيل وبعد قليل عاد وهو يحمل ورقةً مشفوعة بخاتم المشفى تستدعي إمضاءَهُ ثم، ليخرج بعد ذلك جثمان مريم إلى نافذة الجنة وتجنح روحُها بعيدًا عن كآبة الحاقدين وملابسة الألم، وتتابع الموت بعد الموت الذي يُلاحق كلّ نابضٍ بالحياة.

ارتكنَ ميشيل على جدران العناء بعد أن أسند رأسه عليها دون اعتناءٍ، فأُصيب بالغفيان، هكذا ظنّ المُلتفون حوله قبل أن ينحسر الجفن وتشيرِ العين بما معناه "مَتخفوش أنا لسه حي"!

قبضَ ميشيل على قلمه المُرتعش وخطَّ بيده إذن الرحيل وإشارة البدء في إهالة التّراب على جسد زوجته، فبعد أن كان لها حُضنًا حانيًا، أصبح اليوم محض زوجٍ، ناعيًا رحيلها مُساهِمًا في إشاعتها نحو الظلام.

"إمضي إمضي يا ميشيل، ربنا يصبرك يا حبيبي"

ويأتي صوت الأستاذ عرفات مرةً أُخرى، وتحدجه كذلك نظرات الحاضرين مراتٍ ومرات!!

***

(4)

"الحياة لسه فيها اللي يستاهل إننا نعيش عشانه يا ميشيل يابني"

قبض الأستاذ عرفات على يد ميشيل، وألقى على مسامعه تلك الكلمات العزائية بعد أن خَلِي المكان مِن المُعزين.

ابتسمَ ميشيل بسمةً تحملُ قدرًا كبيرًا من الأسى، وأومأ برأسه دون أن ينبس ببنت شفة، بعدها انصرفَ الأستاذ عرفات، وأوصد القس ميشيل باب شقتة المحفوفة براحة الموت الطازج.

(5)

التحقيقات تُشير إلى أن هُناك أمرًا مشمولًا بالغموض يرقدُ في هذا الحادث غير أنه شديد التعقيد وعصيُّ التفسير، وعناصر الاتهام تحومُ حول الأستاذ عرفات!!

نعم الأستاذ عرفات .. ذلك المُسلم الوحيد في تلك المنطقة.

يقول رفقاء المستشفى الذين ارتابوا في أمره فورَ سماعه يتمتم بتسابيح الإله: أنه كان يدّعي التصوف والهُدى "وبصراحة مفيش غيره اللي ممكن يعمل عمله زي دي، دا مسلم وكمان متعصب وحتى الفجر بيترل يصليه في الجامع مع إنه بيكون الوحيد في المكان بعد المؤذن"!

يأمر المُحقق باستدعائه، ومن العجيب في الأمر أن القس ميشيل يوافقُ رفقاءَهُ على تلك الأطروحة ويؤمن على اعتقادهم، إلا أنه كانت لديه مساحة مِن التريس حتى مطلع الصباح؛ ليُروج بعد ذلك خبرًا ما يُشير إلى أن قاتل زوجته مريم هو الأستاذ عرفات.

"أيوة عرفات هو اللي قتل مراتي" .. يقول تلك الجملة قبل أن تقع عينيه على إضبَارةٍ مِن ورقٍ قديم يطليه غُبار السنين وبواقي الإهمال، فاقترب وأخذ يعبث بعينيه في تلك الكلمات التي دُونت بتاريخ **1990** وقتَ أن كان في براثن الجامعة حيث الشباب والرعونة وأحيانًا العقلانية والطموح حيث وجد نفسه إزاء تلك الكلمات:

يحارُ الإنسانُ منا في تلك الأيام بين إصابة الشقاء والسعي نحوَه وبين إجادة الراحة على راحة الآخرين البضة!

لقد تمنيتُ كُل ما يتمناهُ النائمون مِن عودةٍ أُخرى للحياة، وانطلاقة ثانية نحو الوصول.

نعم أُريدُ حقبةً مِن الهواء، هذه الأخيرة التي تعينني على التنفس.

لقد سئمت الثبات،

وكرهت الرُّقاد،

وحان وقت الطيران لتصوير الكون بعينِ الروح، وأرشفةِ مَلامحِ السماء وأنا أرتشف حبات القهوة في صباح فُرصةٍ جديدةٍ للحياة"

ثُم فردَ جسده النحيف على سريره الخالي من زوجته مريم، وأخذ تنهيدةً عادت به إلى السابق حيث الماضي السحيق والصبية الخالية من كُل شيء عدا الطموح .. وغطّ في نومٍ عميق!

***

(6)

حضر الأستاذ عرفات مُكبلًا أمام المحقق، وشاهدَ القس جون وهو يتوسل إلى الصليب، ولاحظَ هروبَ عينيه عن مُشاهدة جاره المسلم وقاتلِ زوجته المسيحية " كما وشى أمام الجميع بذلك".

المحقق: اقعد يا عرفات.

يجلس عرفات ويُقسِم على الصدق، فيقول: بأنه لا يعرف عن جاره وزوجته سوى الخير ولا يتعامل معهم ألبتة إلا في أضيق الحدود، وما يقال عن قتله لمريم هو محض افتراء لا يعرفني ولا أعرفه.

المحقق: وماذا عن اتهام القس جون لك؟!

فيحدج الأستاذ عرفات القس جون الذي بدا عليه التوتر، ويعاود الحديث: "أقسم لك أنني لا أعلم عن قتلها أيّا مّما يقال عني"!

لتأتي المفاجأة على غير انتظار. تلك التي صرخت برياحها في وجه الجميع، بعد أن اعترف القس جون بأن أحدًا لم يقتل زوجته مريم سواه!!!

ينتحب الأستاذ عرفات في البكاء ويحوقل رافعًا بصره إلى السماء، ويقع المُحقق في أَسْرِ التخبط، ويستطرد القس جون فيقول:

لقد كُنت لزوجتي مريم زوجًا حانيًا غير أني رجل ولا مناص من تدبر فكرة كتلك "وبعدين أنا ليا احتياجات زيي زي أي رجل" قُلت..

غير أنها كانت تقول لي بأني كراهبٍ يجبُ عليّ ألا أركز سوى في الدين وخصائص التعبد وتعلمها وتعليمها للغير، وكلما حاولت أن أقتطف منها قبلة كانت تتهمني بالشَّبَقِ!!

"أنا قس ومتدين وبعلم الناس الدين وبتعمله وانتي مراتي يعني حلالي"

غير أنها كانت لا تُقنع بما أريد أن أُقنعها به، حتى جاءت تلك الليلة التي عُدت فيها مسكورًا مخمورًا بعد أن سقطتُ في غياهب الندم والنوم في أحضان الأخريات وأنا القس حامل رداء الحق وصليبِ المغفرة. فدخلت إليها فوجدتها قد تصنعت الطهي، فاقتربت منها ولثَمتُ وجنتها، فتراجعت إلى الخلف،وأفزعت حالتي المسكورة: "وكمان جاى سكران يا حامل الصليب؟!"

فحاولت مرة ثانية أن أعطيها فرصة للجلوس معي، وطلبتْ منه الإنصات وحسن التفكير: "عايزيني افكّر في ايه؟! أنا هنا لأكلك

وشربك، وعشان أهيئلك نومه كويسة ومكان هادي تتعبد فيه يا جون"!!

يا مريم انتي مراتي، وأنا ليّا حقوق عليكِ!!

وأنا عارفة حقوقك، مش لسه قايلاهملك حالًا!

ولكني أرغب في هذا "وأشار بإصبعه على جسدها" .. فرمقته!

فقابل نظراتها الحادة بتحدٍّ لا يعرف الهوادة، فهددته بالرحيل والإدلاف نحو الكنيسة "عشان أفضحك قدام أبونا".

عندها لم أدرِ بنفسي إلا وأنا أقبضُ بمُدْيةٍ حادة اتخذتها أداةً لطعنٍ لم أعرفه من ذي قبل، فانفجرت الدماء من عروقها العاصية، وتأوّهتْ بالنجدة، فلم أرَ في نفسي حاجةً في أن ألبي استنجادها، فتركتها ودخلت نحو غرفتنا، وبِتُّ ليلتي دونها كما اعتدتُ على ذلك، حتى جاء الصباح ومِن خلفه رجالات الشرطة.

الخواجة محمد!

تحلقوا جميعًا حول كُل بُقعةٍ طالتها قدماه، وفيما كان الناس يتسامرون حول ما حدث ليلةَ الأمس وما حملتهُ من مَقتل غفير مدرسة "للأمام دُر" الابتدائية المُشتركة، دونَ دلالةٍ أو بيان يقطعُ بحقيقة الجاني، كان الخواجة مُحمد يُرحب بالمُتكدسين من أمامه صُفوفًا وأعمدةً طمعًا في رؤيته، والتزود من مُجالسته التي لا تخلو من مُداعبة العقول التي أضناها كثرة الشقاء ومتاعب الحياة التي لا تنتهي.

وبدأت القصة في ذات المكان من ذات الشخص أمام نفس الحاضرين الذين أنصتوا إلى الخواجة محمد فور اندلاع مُكبرات الصوت المُقعرة، وهَمس الأخير في الميكروفون "تؤ تؤ واحد إتنين تلاته على البركة"، بعدها بدأ حاكيًا عن أُمنا الغولة التي شاع الحديثُ عنها في أرجاء البلاد، وبأنها هي المُتسبب الأول والأخير في مَقتل الغفير.. قاطعه أحدُ الجالسين والمعروف عنه الإفراط في الجدال وإجادة الفذلكة على كل كبيرة وصغيرة ويُدعى نعمان السرداني.

نعمان: طب يا سي الخواجة محمد قبل ما تكلمنا عن أُمنا الغولة وكلام العيال الصغيرة ده عرف الناس منين أنت محمد ومنين خواجة؟!

ارتفعت الأصوات وصوبت الأنظار بامتعاض تجاه نعمان.

"خف جدال يا نعمان ولايم الليلة مش ناقصين جدال أمك" قالها أحد الملهوفين على استطراد الخواجة محمد والممانعين لاستقطاع كلامه مَهما كان الإلحاح أو الفضول في المعرفة.

زكي وعقلك واعي، كان عندها حق أمك لما كانت بتخبيك وتلبسك شعر الماعز لحد ما بقى عندك عشرين سنة وتقول للناس إنك بنت عشان خايفة عليك من الحسد يا نعمان" قالها أحد الراضين والراغبين في معرفة ما طرحه نعمان".

الخواجة محمد مُبتسمًا: مُنذ ما يزيد عن الخمسين عامًا كان لي جَدٌّ مِن أمي وكان ينتمي إلى الأصول العثمانية (تركيا حديثًا)، والذي ارتحل عنها مع أهله واستقر بهم المقام في إحدى القُرى المصرية، وأطلق عليه المصريون لقب الخواجة من كونه لا ينتمي إليهم وهذه عادات المصريين -كما تعلمون-.

"أعلن الجالسون قبولهم للكلام، وبأنهُ كلام ناس عاقله برضوا"

نُعمان: طب ده جدك عثمان مالك أنت وماله؟!

الخواجة محمد وقد كشف عن ضحكة لم يستطع صدها: يا نعمان بقولك ينتمي إلى الأصول العثمانية اللي حكمت مصر زمان!

نعمان بتهكُّم: ما غلطناش في السيد البدوي يا خواجة محمد، وبعدين أنا بسألك إزاي تبقا محمد وخواجة في نفس الوقت، جاوبني بدون فلحطة؟!

الخواجة: كانت أمي ترتبطُ بأبيها في كل شيء، حتى أنها تركت الديانة التي أنا عليها واتجهت حيث كانَ أبوها يعتقد مِن فرط تعلُّقها

به، وفي إحدى الأيام بعد أن انتهت أمي من تحضير العشاء لي همست لي بأنه عليّ أن أترُك ما أعتقدهُ مِن إسلام، وأفعلُ ما فَعلتهُ هيّ لأجل أبيها؛ لأثبت لها طاعتي وبأني "واد صالح وبحب أمي أهوه"، حاولت أن أقنعها حتى تتركني وشأني، فَكرهت مِني ذلك، وأقسمت على ضوء القمر بأنني "مش هكون ابنها ولا تعرفني لو ما سمعتش كلامها"، فغبت عن وجهها ليتسنى لي التفكيرُ في الأمر، فأنا في أمرٍ لا أُحسدُ عليه ألبتة وشأني في ذلك شأن تاجرِ الأغنام الذي تجرع مأساة ارتفاع أسعار الأعلاف التي كان يبتاعُها لتكونَ غِذاءً لهم، يعود عليه بالكسب بعد أن تكسوا اللحوم ماشيته وينتوي بيعها، وفجأة طُلبَ منه أن يتبرع بها وبأكلها من غير ولا مليم!!

يقول الخواجة لو استمعت إلى أمي سأكون "دلدولا" لا يُعتدُ بي أمام البشر، وربما لا يطلبونني في شهادة وبكدا هكون زيي زي الأعمى الذي لا يُعترف به أمام القاضي، هذا بخلاف أني سأترُكُ دينًا اطمأنّ إليه قلبي، ولو أنا عاندها فسيحلُ عَليّ غضبها، وأخشى حقيقةً مِن دَعواها التي تنفذُ في المدعو عليه ولو بعد حين دون أن تُخطأه، فما زال عقلي يحتفظ بما حدث للعم شُكري بتاع الفول الذي غشها ذاتَ مَرةٍ وباع لها مية الفول دون حبات، وحينما عادت إليه انفجر في الضحك وسخر مِن بلاهتها قائلا: "يا وليه دانا بعتلك عصير الفول وقولت الفول نفسه أبيعوا للأوباش والناس اللي مش بتفهم"، فحطمت وجهه بما وجدتهُ أمامها مِن عصاة كانت تنتصف العربة، ودعت عليه بأن لا يُضام إلا في لسانه اللي نازل بيه كدب، وبعد أقل من أسبوع وجدنا الرجل وبجواره أحد الصبية الذي استأجره بائع

الفول ليُدلل على سلعتة بصوته، بعد أن أصابهُ العجز في لسانه فلم يعُد يتكلم!!

أنا بحب ديني أه بس مش عايز كلامي بعد كده يكون بالإشارة!!

ضحكَ الجالسون من خفة دم الخواجة محمد المُرتقبة، وطوحوا رؤسهم برضاء واستمتاع، لم يطل رأس ورضاء نُعمان الذي صدح قائلًا:

بتضحكوا على إيه؟! دا لحد دلوقت ما قلناش إزاي يبقا اسمه محمد والخواجة في نفس الوقت!

"أردف الخواجة محمد حديثه، ولم يكترث بما قاله نُعمان"

فجلستُ أفكر أُفكر وأفكر حتى أخذتُ على نفسى أمرًا اتّبعه جموع المُسلمين الأوائل وهو أن أُخفي إسلامي وأرفع لواء الطاعة أمام أمي، وبكدا هكون كسبت الاتنين أمي وديني، غير أن أمي لم تكن على قدر من السذاجة التي تجعلها تُصدقني بلا دُلولة، وحرصت على أن أخرُج إلى الناس وأُعلنَ لهُم عن اسمي الجديد "الخواجة"، وهو الأمر الذي لم أحسب لهُ حسابًا، بس خلاص الفاس وقعت في الراس ولست أملكُ الآن رفاهية العودة!

ها جاهز يا واد يا خواجة عشان نلف أنا وأنت البلد كلها وتقول بصوتٍ مُتعمَد "أنا اسمي الخواجة مش محمد"؟

جاهز يا أمي ..

وقد حدث ما طمأنَ قلب أمي، واستمر الناس يُنادونني بالخواجة حتى ماتت، فكشفت لهم عن حقيقتي هذه، ومُنذ ذلك الحين وصار لي اسمان الخواجة ومحمد!

نُعمان: طب وبالنسبة لأمنا الغولة أنا بقول نخلينا في الموضوع ده عشان نعرف مين ابن الهرمة اللي قتل الغفير دا الواد شوقي ولدي خايف يروح المدرسة وزعلان قوي على الغفير وبيقول دا ياما جابلي "شاندوتشات"!

الخواجة محمد: أين تاهت أمي عن أمثالك!!

فعاد القوم في الضحك ..

سـلوى..

(1)

يا لك من قلمٍ يحتلُ في القلبِ مَوضعًا، وفي العقل ذكرى، وفي النفس حلاوةً لا تُنسى، لم أنساك ولم أنسَ أيامك التي كانت لا تخلو من بهجةِ الصباح وانتعاشة الظهيرة وجمال الليل.

"سون سون"؟

آووووه إنه صوت أمي تنادي عليّ برقتها المعهودة وسجيتها غير المُصطنعة، فهكذا اعتادت أن تُناديني كلما رأتني في فِناء قصرنا بين الحدائق والأشجار حيثُ تكمنُ جَلستي.

نعم .. أمضي كثيرًا مِن الوقت سارحةً بخيالي جامحةً بجمالي، فأنا أتمتعُ بجمالٍ كالجمل الشاهق بين حيوانات الحديقة، تشرئب باقي الحيوانات مِن حولهُ بتمعن مُسلطِين وجوههم صوبه بتفحصٍ متى تواجدَ بينهُم، ولكن أبدًا لن يحدث أن يُصبحوا مثله مَهما كانت الأماني والتماني.

هكذا أكون بين صديقاتي أمشي بينهُن بقدِّيَ المَمشوق، وشعري المُرسل، ونهديّ المُدببين، ووجهي الناصع البياض، ويديّ المُتهدلة مِن فرط عدم الحركة فأنا لا أفعل شيئًا في منزلي، الخدم يُحيطون بي مِن كُل حَدب وصّوب. نعم يَعرفني أصدقائي بأني ابنة صلاح البدراوي الأديب الألمعي، ووالدتي هي نهال مطاوع الصحفية بجريدة السحاري

العربية. مُعاملة الجميع لي لا تتشابه مع غيري مِن بقية الأصدقاء، أنا الآن في السنة الرابعة والأخيرة مِن معهد الفنون المسرحية، مَوهبتي في المجال المسرحي كجمالي يشهد لها القاصي والداني، ويُثني عليّ كُل مَن أسعدهُ حظة ورأني.

أتطلعُ دائمًا إلى فاتن حمامة فهي حقًا كالحمامة تُصبحُ في يد عُمر الشريف، فما أحلاها بخفة طلتها الطبيعية ورقتها البديعية التي تبدو عليها بوضوح في ذلك المَشهد الحميمي مِن فيلم (صراع في الوادي) فيحتضنها ويقبلُها ويقربها إلى كنفه وما يلبث أن يتركها؛ كي تطير بعد أن رشفَ مِن شفتيها الوردية رشفةً لطالما حُسد عليها من جموع المشاهدين.

أذكر يوم أن اختارني عَميد المَعهد كي أُجسد دَورها في فيلم (الأُستاذة فاطمة) المُحامية الداعية للتحرر من شخط ونطر وأمر وظُلم زوجها "كمال الشناوي" المُحامي أيضًا، وكيف أنها عاندت ذلك الفكر الذُكوري المُتشعِب في لبابة الحياة المصرية، سيما وقلب الرجل الشرقي.

وفي يومٍ مِن أيام الجامعة رأيته فأدهشني حنو صوته الرقيق الوضاح، وهو مَن كان بالأمس القريب يخجل مِن التحدث في التليفون أمام أصدقائه الذكور كما عُرف عنه، ولا أخفي سِرًا فكم أنا أشتاق لتلك اللحظات التي تهديني إياه فأراه.

نعم أحبه وتحدثت مع صديقتي ريمان في هذا الشأن، وأخبرتها أنني لا أستطيع أن أعيش دونه. يا له من حلم لا أفتأ أحلمُ به مُنذ السنة الأولى لي في الجامعة، ولكن حال بيني وبينه عاداتي التي عليها اعتدت،

فأبي رجلٌ مُحافظ بطبعه وأمي كذلك. فلم تُغيِّر فيهم قراءهُم وكثرة اطلاعهم على أفكار وثقافات الآخرين، فهُم يقرؤون الكثير ويكتبون أكثر دون أن يُحدثَ ذلكَ تغييرًا ولو طفيفًا في تفاصيل حياهم اليومية الرتيبة!

سلوى: إزيك يا مجدي؟

مجدي: الحمد لله إزيك، انتي يا سلوى؟

سلوى: بخير.

مجدي بارتباك: طب كويس، ثُمَ نظرَ إلى الأرض وعاد لوجهها مُستطردًا: سلوى أنا ممكن أقعد معاكي شوية النهردة بعد المحاضرة؟

سلوى وهي تَدُسُّ فرحتها في أعماقها: لأ .. ليييه؟!

مجدي: مِحتاج أتكلم معاكِ في موضوع كده.

(ينبض قلب سلوى حتى يكاد ينخلع مِن فرط فَرحتِها، فقد شَعُرت بأن الحُلمَ سيضحي عمّا قليل حقيقة)

سلوى: بس أنا مش هَينفع أقابلك.

مجدي: ليه؟!

سلوى: لأنِ ما اتعودتش اقعد مع حد معرفوش.

مجدي مُداعبًا إياها: بس أنا متأكد إنك تعرفيني.

سلوى بتعجُّبٍ مُصطنع: تُقصد إيه بقا؟!

مجدي: يا سلوى أنا بحبك.

(حالة من الارتبارك سيطرت على باكورة الحوار الدائر، وملامح سلوى أعربت دون قصد عن سعادتها الغامرة، وهو ما فُسرَ بقولها: وأنا كمان بحبك .. بعدها غَطت وجهها بأوراقِها لتُخفي احمرارَ وارتعاشة الوجنتين خجلًا)

مجدي: إذن يا حبيبتي فلقاؤنا على كوفي شوب الجامعة بعد المحاضرة.

انطلقت سلوى تتراقصُ على صفحات الأرض وتحت سقف السماء بعد هذا الحوار الذي لم يطل عن العشرة دقائق إلى صديقتها ريمان وأخبرتها بما حدث، ثُمَ أدلفا معًا نحو قاعة المُحاضرات.

***

(2)

أبحث عنكِ، أين انتي، ومن تكونين؟

أستشعر دائمًا بكِ، ولكن لملامحكِ أنا لستُ بعارف!

نعم أسرحُ كثيرًا بفكري وأترك انسحابات الخيال كي تتعمق داخل تفاصيلك حتى أستشف من وراء ذلك كله ماهيتكِ وكُنهكِ الباهت لي الآن.

أتتبع النظرة تلو الأخرى في كل الوجوه التي تُصادف وجهي، وأجدُ نفسي حائرة مُتسألة "أهي هِي، التي أبحث عنها؟"

وللإجابة أنا لا أستطيع، أرأيتِ حيرةً أكثر مما أعانيها؟!

أيضًا لم أجد إجابة!

رُبما ليست حيرةً بقدر ما هي لذة تَلفحُني بنشوة البحث عن الحبيب.
ما هذا أيٌ حَبيب!

تلك الكلمة القليلة الوصف وعنّينة التعبير ورديئة المعنى أمام ما أستشعره تجاهك انتي أيتها المَجهول، ولكني هل تُصدقيني حينما أقول لك أنني أثق تمامًا أنك في عالمي الخيالي تعيشين، بل وأراكِ بداخل هذا العالِم الافتراضي تمرحين على الرغم مِن عدم قُدرتي على استشفاف صورتك الخافتة في وسط واقعي الأبلج.

أيُّ شقاء هذا الذي أنا فيه؟! بل وأيُّ تعاسة تلك التي تُحاصرني وتلتصق بي أينما أكون، تعاسة تجعلني أستصعب على نفسي أحيانًا، وأود أن لو سَنحت لي الفرصة فأخترق جدار مَعرفتك وأسبحُ في وجهك دون لغوب.

ووقتها لن يحدُّني حدٌّ أو يمنعُني مانع مِن أن أستصحبكِ مَعي ولو كُرهًا، وآتي بكِ إليّ، وأتركك مع نفسي لتنتعشَ صَخبًا بحُبك المتملك لها داخل مملكة عظيمة لا أعرف فيها مِن نساء العالمين سِواكِ، ولا أرغبُ في أيٍّ منهمنّ، فيكفيني إياكِ.

من انتي إذن وما هي صفاتك؟!

أأنتِ بيضاء أم سمراء؟!

أأنتِ ذات الطول الفارع، أم أنكِ قصيرة ويكسوكِ الجمال؟!

أأنتِ ذات الشعر الأسود المتقصف، أم الأشقر السارح على الأكتاف؟!

عيناكِ أهما سوداوان، أم الألوان المغايرة لهذا اللون هي التي تكسو نظراتك؟!

أأنتِ ذات التُّخن البارز، أم أنكِ للرفع تَميلين؟!

مشيتُك.. أهي ذات الحركات السريعة المتلألئة، أم ذات البُطء المُتأني كالسُّلحفاء؟!

أحبكِ كما أنتِ أيتها المجهول، ولكن أين أجدُك، كي أمسك عينيكِ بعينيّ، وأضمَّ قلبي إلى قلبك تاركًا لهُما الفرصة كي يستشعرا معًا "طعم النبض" بعد أن أرهقنا كل هذا البُعد، ذلك الشيء المعدوم الحس والإحساس، والمُفتقر لما يُسمى بالانفعال العاطفي.

أعلم أني أكتب لمجهولٍ، ولكني على ثقةٍ بأنه سيأتي يومًا ما وألقاكِ، وأعدكِ قبل معرفتي بملامح رسمك وحروف اسمك أنكِ ستقرئين كلامي هذا وستضربين كفًّا على كف، إمّا إعجابًا وإما استغرابًا وتلميحًا بالشفقة، وربما ترينّ فيّ الجنون فَتنصحيني بالتوجه لطبيبٍ كي أتعالج مما أنا فيه! على أيّةِ حالٍ قولي ما تشائين، ولكن لا تُخفي ثمة حقيقة كوني أُحبك، وأزعم أنكِ سَتحبيني أليس كذلك؟؟

***

(3)

انتهت مُحاضرة سلوى وانتهى أيضًا مجدي مِن مُطالعة كلماته السابقة التي لا ينفك عن قرأها كُلما اتسع الوقت واتسق الحدث مع رغبته في أن يقرأ تلك العبارات التي ظل يبحث لها عن أُنثى. لقد وجدتُها .. هكذا قال قبل أن يدلفَ نحو سلوى ليُداعب قلبها بكلمة "وحشتيني".

جلس كُلّ مِن سلوى ومجدي أمامَ بعضهما في كوفي شوب الجامعة. التوتر هو السمة السائدة عليهم، والخجل يعتري المشهد براكوراته، يحاول كل واحد منهما التذرع بأي عمل آخر غير أن ينظُرا لبعضهما، والصمت بينَهما ضاربٌ بسياجه، ولكّن سُرعان ما انحسر بمجيء الويتر "مُقدم الطلبات" مُتسائلًا: تِحبوا تطلبوا حاجة يا فندم؟

***

(4)

سلوى اتأخرت يا صلاح!!

قالتها الصحفية نَال مطاوع والدة سلوى بعد أن اختلجَ بصدرها نوعٌ ما من الحنق الممزوج بالخوف على ابنتها التي اعتادت الذهاب والإياب في مواعيد ثابتة لا يشوبها تأخير!

صلاح وقد توقفَ عن القراءة وألقى نظارته برفق على مكتبه المُزين بزخاريف ونقوشات فرعونية .. غريبة دي أول مرة تعملها!!

نهال: أنا هقوم استجم شوية قدام البسين. واستدارت من فورها للنفاذ خارج البهو، ولكن أحجمها عن ذلك صوت صلاح الذي أسفرَ عن امتعاضٍ يحمله لبنته سلوى، وما لبث أن قال مُعاتبًا: "ليه كدا يا سلوى يا بنتي .. ليه كدا بتقلقينا عليك!!"

ثُمَّ رجع خلف نظارته مرة أخرى بعد أن تمتمَ بكلمات غير مسموعة أظنة يُحوقل، وانصرفت نهال حيثُ كانت تُريد!

***

(5)

سلوى: أنت عارف يا مجدي أنا طول عُمري مش عايزة حاجة من الدُنيا غير حد حنين، حد يطبطب على كتفي ويهمس في أُذني "متخفيش أنا معاكي"!

أحكمَ مجدي قبضة ذراعيه الضامة لسلوى بشدة، ولثمَ جبهتها قائلًا: "متخفيش أنا معاكي أهوه يا حبيبتي"

بعدها افترقا وَوَدّعا بَعضهما والنظرات التي تشي بالشوق لا تزال تنبعثُ مِنهما!

***

(6)

استقر المقام بسلوى الآن أمام مترل والدها الأديب صلاح الورداني.. تجاوزت حدود البوابة غيرَ عابئةٍ بما أحدثته مِن تأخير، رَنت نحو تواجد والدها المُستلقاة على ظهرها أمام تدفقات الماء وتحت خيوط الشمس..

هاي مامتي .. قالت

أشاحت نهال برأسها دون اهتمام وكأن أحدًا غيرها هو من كان في حالة مِن الخوف والقلق عليها مِن قليل!

كُنتِ فين دا كلوا؟!

هكذا خاطبها والدُها.

سلوى: بابتسامة.. كُنت في الجامعة يا بابا.

طيب يا بنتي ليه التأخير ده، أنا مش قولتلك تاخدي بالك من نفسك، تجي من بكرة ابعت معاكي السائق الخاص بي؟

سلوى مُقبّلةً يد أبيها "وهي الفعلة التي أثلجت وغرَ صدره فجعلته يُلوح بابتسامة" .. ميرسي يا بابا

ثُمَّ انصرفت صوب حجرتها تتمايل وتتراقص على تلك النغمات المنبعثة مِن هاتفها، والفرح يكاد يُجهزُ عليها، فلم تَعي بعد ما جرى في تفاصيل يومها هذا.

أحكمت إغلاق باب الحُجرة ..

وهامت شاخصةً بصرها نحو سقف غُرفتها، وهي تلتف من حَولها، فاردةً لذراعيها وكأنها تنتظر ذلك الحُضن الذي احتواها مُنذ قليل، ثم أخذت تتحسّسُ جبهتها وموضع شفاه مجدي.

وراحت تتغزل في نفسها وتقول: نعم أنا جميلة..

أنا جميلة وجمالي وحداني لا شريك له، ومن يراني بالطبع لا ينساني، فأنا جميلة جميلة وجمالي وحداني.

***

(7)

اكتسبت سلوى من والديها عِشقهما للكتابة، وأُنسهما بجوار الأقلام والأوراق البيضاء.

فجاءَ المساء مَصحوبًا بأستاره السوداء دون حُزن، ونجومه الوضّاءة دون شُعاع، وسكونه المُلهم لقرائح الراهبين فِي محراب الشوق والحنين إلى الحبيب، كُل هذا ساهم في أن تجلس سلوى القرفصاء بين أوراقها لتُذيع سرها عليهم وتُحدثهم بأخبارها، وتكتب ما طاب لها أن تكتبه بقلمها الرشيق تمامًا كرشاقتها، لتدسه في آخر اليوم في ثناياهم وبين أمهات الكُتب، فثمَ الحُضن وحنان الأم وإن كان جمادًا!

"يا لك من قلمٍ يحتلُّ في القلب موضعًا، وفي العقل ذكرى، وفي النفس حلاوة لا تُنسى، لم أنساك ولم أنسَ أيامك التي كانت لا تخلو

من بهجة الصباح وانتعاشة الظهيرة وجمال الليل" هكذا اعتادت مُخاطبة قلمها!

وها قد حان النوم ..

غدًا تُقر العين برؤيته.

غدًا تُشنَّفُ الآذان بسماع صوته.

غدًا سأتلمسُ بيدي أطراف يديه.

غدًا سأتحسّسُ مَوضعَ شفتيه .. قالتها ونامت!

وفي صباح اليوم التالي كانت على موعد غير مُنتظر مع والديها، الذيْنِ جَلسَا على مائدة الإفطار في انتظار وصولها وما إن رأياها إلا وأعلنا انشغالهُم بالحديث في موضوعٍ مهم، يدور حول وجود شاب ابن حسب ونسب يريد أن يتقدم لخطبتك يا سلوى .. قالا لها.

نهال: يلّا يا حبيبتي تعالي افطري معانا.

لم تُجِب ولم تنطق بكلمة واحدة، وسُرعان ما خرجت فالأمر بالنسبةِ لها محضُ كلام فارغ لا يستحق الوقوف عليه كثيرًا.

وفورَ خروجها تمكنت مِن إيقاف تاكسي مِن قلب هذا الضجيج الذي أحدثته مركبات الشرطة التي حملت المترجلين وأصحاب السيارات على اتخاذ الطُّرق الجانبية مسلكًا للوصول إلى أعمالهم ومصالحهم التي تُعطلها كثرة المواكب الرئاسية في هذا البلد البيروقراطي!

سلوى مُهاتفةً مجدي: ألو أيوة يا مجدي أنا في الطريق لك إستناني قدام بوابة الجامعة.

التقا مجدي وسلوى .. أنشد الأول حُبه في الثانية، وتغزّلَ في وجهها وأكتافها وأردافها وعينيها الجميلتين وأنوثتها المنفجرة، ولكن لفتَ انتباهه أن سلوى "فيه حاجة مَعكنناها"!

مالك يا سلوى؟!

حكت له عمّا دار، وما سمعته مِن وجود شاب يُريدُ خِطبتها، ويتضحُ جليًّا موافقة أهلها عليه!

تغيّر لون مجدي في التو، وانحبست أحلامه في بوتقةٍ مِن الفشل، وتكلس حُبه على غير ما أراد في أجواءٍ قاتمة .. حبُّهُ الذي ولد ميتًا!

بيدَ أن هذا الكلام الذي تمكنَ مِن مجدي فجعله يبكي ويضحك في ذات الوقت، بما يعني أن مؤشر الوعي عنده بدأ يتراجع، والطموح في مُعانقة روح حبيبته يكاد ينضب، أما التفاؤل فَخارج الإطار الوجودي له!

عَمَدتْ سلوى نحو تهدئته ووعدته أن الزواج هو المُنتظر ولن يُفرقنا ظرف أو يحول بيننا عائق. ابتسم مجدي وسُرعان ما ابتلعه حُضنها وعاودَ البُكاء.

وعادت هي الأخرى إلى منزلها .. ومن يومها انقطعت الأخبار، وتمزقت الأوصال، ولم يبقَ في نفس مجدي سوى الذكرى التي عليها يقتات فؤاده.

لا يعلم ما الذي حدث!

أين هي؟!

هل رضخت .. فرضيت .. فتزوجت!!

وماذا عني؟!

هاتفها مُغلق!

مُحيط منزلها يتحاشى الجميع التقرب إليه والاقتراب من أسواره!

هل خانتني فانصاعت وباعت؟!

هل نسيت ذلك الرابط الفولاذي الذي كان يجمعُ بيننا؟!

أوووووووووووه يا إلهي!!

لقد انحسرت الثيابُ عَن جَسدي وانكشفَ مِني العَظمُ والجلد، وشاهدني الجَمع، وبانت لهُم سَوْءَتي، وأنا الذيَ بالأناقةِ عُرفت، وبِحُسن التَّسربُلِ كانَ وَصفي.

لا أدري حقًّا ماذا حدث!!

أتتبعُ وجوه الناظرين فيّ، فأجدُ ألسنتهُم تَهجوني بعدَ أن كانوا بالأمس يرجوني ويتوددونَ إليّ، وكأن جميع الكائنات وكل الموجودات التي تحاوطني كانت تتودد إليّ مِن أجلها، وإرضاءً لها!

أتحسسُ جَسدي، فإذا به مكشوفًا بالفعل!

أسرعُ إلى الاختباء والاختفاء خلف المحيطين بي "إمعانًا مني" في التستر، فَيبتعدون عَني "إمعانًا مِنهُم" في رؤية المزيدِ مِن الذُلِ الواقع

عليَّ كُلما انشكفت لهم عورتي، وازدادت حُمرة الخجلِ على وجنتيَّ، وبَكتني عَيني وقَلبي مِن فرط صُعوبة الموقف الذي أنا فيه.

ووسط هذه الطامة أبحثُ عنها!!

فَوحدها هِيَ مَن ستأخُذني في أحضانِها وعن الأنظارِ تُخفيني.

نعم.. إنها "سَترى وغطاي"!

أنتقلُ بعيني يمنةً ويَسرة لعلّي أجدُها، وينطقُها لساني: "ســـــلوى أين أنت؟!

لعلها تَسمعُ صوتي وعَلَيَّ تُجيب.

ويرجوها قَلبي بلسَان حالهِ قائلًا: "استُريني استُريني، بين ثيابكِ وضَعيني" .. وأخيرًا وجدتُها!!

أقسمُ لكم أنني أرها وتراني.

ومن فوري انطلقتُ مُسرعًا قاصدًا وجهَها الذي لاحَ لي مِن بَعيد، وكانت المُفاجأة!!

فما إن دنوت منها إلا ورأيتها وقد انكشف عنها غطاؤها هي الأُخرى، وانطوت على نفسها لتُخفي ما تستطيعُ أنْ تُخفيه بما يستدير مِن جسدها العاري!

فبكيتُها كثيرًا، وبكتني أكثر، وجلسنا بجوار بعضٍ لا ينظرُ أحدُنا إلى الآخر.

غير أني لم أَدْرِ إلى الآن ماذا حدث!!

الناشطة فتحية!

بيد أن الأحداث يُنسي بعضها بعضًا، وكذلك تفعل!!

ففي جنبات الرأس تكمنُ كُل الخبايا، وتُطمرُ كُل الزاويا فلا تستطيعَ لها تأويل ولا ينطلي عليها تفسيرٌ واضحُ المعالم والأركان.

لم يطل بي الوقتُ كثيرًا فسُرعان ما تركتُ ورقتي وصمتَ القلمُ عَن "زأزأتهِ"، وضجّ العقل مُتسائلًا: يااااااااااااااااااااااه والله زمان يا فتحية!!

أعتقد أن الوقتَ الراهن يحتاجُ لكِ ولأمثالك مِن أصحاب العقول النيرة والتحليلات الصائبة بدلًا مِن هؤلاء الملاعين أو كما يُسمون أنفسهُم "خُبراء إستراتجيين"، فلم تعد الشهادة هي العاكس الوحيد الأوحد على تَفتُّح العقل، وانسدال المعرفة مِن منافذ "المُخيخ" المُستوطن داخل ثنايا الرأس.

بتٌّ ليلتي أبحثُ عن أيٍّ مِن الأرقام الخاصة بـــــــ فتحية أقصد "الناشطة فتحية"، فصفة "ست" أضحت لا تليقُ بها، خاصة بعد أن ذاعَ صيتها وانتشرت تَحليلاتُها وتنبؤاتها المُطعَمة بالواقعية والحدوث.

ها هو عنوانها الجديد الكائن بشارع مُراد بعد أن أنعمَ اللهُ عليها وعافاها مِن أزقة وحواري السيدة نفيسة. لقد تذكرتُ أنني تناولتُ

منها كارت التعارف الخاص بها خِلسةً وعلى حِينِ غَفلةٍ مِن "البودِجاردات" المُحيطين بها إبّان مؤتمر صحفي مهم!

تسربلتُ ملابسي سريعًا وأحضرت آلة التسجيل حتى لا أنشغلُ بالكتابة وأترك التركيز في أثناء لقائي مع الناشطة فتحية، وبعدها أوصدتُ بابَ شقتي وانطلقتُ مِن فوري.

يا ست فتحية يا ست فتحية .. قُلت، بعد أن تصلبتَ كثيرًا أمامَ شقتها دون أيَةِ ردود!!

فتحية فتكات وقد واجهتني بعينيها المُعمستين ويديها التي لا يقوى أمثالي على تحمل اللهو مَعها .. بعدها قالت:

ميييييين أنت "يُخرب بَطْنَك" يا موكوس هههههههههه

إزيك يا فتحية والله ونضفتي يا بنت البيئة الصحراوية الجافة مِن كل حاجة هههههه

هُسسسسسس هتفضحني إلهي يخرب بيتك تعالى ادخل بسرعة

أنا: بسم الله الرحمن الرحيم .. إش إش

فتحية: أهلًا ياسي "الإستاد"!

- أنت لسه لسانك ما اتعدلش يا ست فتحية حتى بعد ما بقيتي بسم الله ما شاء الله ناشطة قد الدنيا!

ياخويا مش لما تتصلح أحول البلد أبقا أدور على تصليح لساني! عبقرية برضوا يا فتحية

طبعا أكيد جايلي كعادتك عشان تصدعلي دماغي وتمشي، لأ بقولك إيه دانا دلوقت مطلوبة في كل الفضائيات!!

- آه يا دِش مُتحرك انتي ههههههههههه

هههههههه لسه بجح زي ما أنت ما إتغيرتش.

- ومنين يجيلنا التغيير طالما إن السلعة بالأساس ردئية يا فتحية والبلد واخداها عَكسي.

شكل السياسة واكله دماغك، والجماعة إياها لسه قالقاك!!

- إنتي عارفة يا فتحية أنا واعي لحقيقة إن مصر لازملها سباك بشرط يكون صنايعي عشان مواسيراها كتيرة وحنفياها محتاجة "تشعيرة" بس راحوا فين الصنايعية مِن البلد، دا اللي مش لاقيلوا جواب؟!

بص يا سي الإستاد الصنايعية كتير بس "الرَّك" على اللي يعرف يوصلّوهُم!

- تفتكري الوضع دلوقت هيستمر في التخبط ده كتير، دا حتى الحكومة الجديدة مش عارفة تمشي البلد، وعشان كدا تحسي إن مصر ماشيه على العجين بس للأسف "ملخبطاه" كُله!

مش مظبوط كلامك، لأن الأوضاع في البلد ملهاش في الظبط والربط والاستقرار على الأقل لــ3 سنين جايه، وبالتالي كل حكومة هتيجي هتحس إنها واخده على راسها بآلة حادة فدايخة من قوة

الضربة، وبالطبع ده هيأثر على القرارت والتشكيلات والتوجيهات المُنبثقه منها!

– أنا: "منبثقه!!" .. ما علينا.

بس الثورة ماكنتش بتقول كدا، وخارطة الطريق المكتوبة مَفيهاش إن البلد تُقعد سنين كتيرة "بدون حُكم واحد يُشكمها"!

فتحية: مكتوب وخارطة إيه اللي بتتكلم عليها!!

وهو فيه حاجة إتقالت وسمعناها تنفيذ أو فيه حاجة إتكتبت وشوفناها واقع على الأرض، دانا اللي وقعت ياخويا وأديك زي ما أنت شايفني مكسحه أرجُل وأيادي!

– سلامتك يا فتحية معلش أنا مَخدتش بالي من لفافات الشاش اللي على إيدك، أو تقدري تقولي الشقة الأوبهة دي نستني أقولك سلامتك يا تربية المجاري والجواري والحارات المعفنة.

انطلقت فتحية بضحكة رقيعة، وتمايلت قليلًا بمياعة.. بعدها قالت: مَهوا قرّ أمثالك اللي جايبينا ورا!!

أنا: هههههههههههههه ربنا يبعدنا عن كُل ما هو "ورا" يا سِت.

فتحية: سافل وتعملها.

سيبك بس من محمد محيي وخلي الراجل راقد مِرتاح ومِستريح في المُكنه بتاعتُه، وقوليلي أنا شايف إن الجماعة إياها خدت " .... " طِلع مِن الناحية اللي ورا مظبوط؟!

فتحية: بُص دول عاملين زي الست اللي راجلها غايب، فمنين ما تروح في مكان تلاقيها!

- تقصدي إن سقوط شلة الحرامية مش مأثرين في أعضاء وقيادات الجماعة المُستترين؟!

طبعًا مأثرين، دولا كمان مش ناقصهم غير البُكاء والنواح، بس زي ما بقولك دي ناس مش سهلة، ووشها بيتلون بحسب الظرف والحدث، ووقت البُكاء والصويت دا في الغالب بيكون بعد منتصف الليل عشان محدش يسمعهم ولا يشوفهم!

- طيب هو صحيح أمن الدولة رجعت تمارس عملها تاني، وبتمّسك في الخلق؟!

وأنت مال أهلك!!

أنا مُمتعضًا: جرا إيه يا فتحية إيييه إنتي معاااااهُم؟!

وهو السؤال الذي على إثره ارتفعت يد الست فتحية رغم تكلسها وهبطت بها على وجهي قائلة: "وحياة النبي لأنزلك النهردة عندهم ضيف شرف يا ابن .... "!!

فأمسكتُ بتلابيبي في مُحاولة مني "للنفاد بجلدي" وطيران على الشارع فلم أدرِ سببًا لهذا الانقلاب الرخيص، والحدث الجلل الذي يُفسرُ فعلة المذكورة، غير أني لن أترك هذا الأمر، فمن يدري لعل صفة الناشط الآن تستدعي المرور على أروقة الأمن الوطني "أمن الدولة سابقًا" ولِمَ لا؟!

مَهي فتحية وناشطة مش لايقة!!

زوجتي العانِس

لا تفتأ تحتفظُ بتلك الغمغمة التي ترشقني بها إذا ما أبديت لها من نفسي حاجتي المُلحة للمُضاجعة وفعل ما يفعلهُ "أي إنسان ربنا هداه واتجوز"، كونها تخشى مِن الأخيرة وتَهابُ مِن فضِّ الخاتم حتى وإن كان بحق، "إزاي يا حبيبتي دانا جوزك" أقول، فتلوح برأسها كاشفةً عن رفضها الأزلي والأبدي وتتذرع دائمًا بما قولتهُ لها في ساعة نحس إمعانًا مني في التخفيفِ عنها وإزالة تلك التخوفات مِنها فتقول لي: "مش احنا إتفقنا اننا هنعيش زي الاخوات وأنت قولت طبعًا؟"، تأبى الأيام أن تُغيِّرَ مِن زوجتي ويمرُّ العُمر دون أن أعيش دُنيا الأزواج، فغُرفة النوم واحدة ولكن ليس غيره السرير ذلك الكائن الجمادي اللعين الذي يُفرقُ دائمًا بين الأخت وأخيها "آه يا حبيبتي بس أنا زوووجك" فتتصنع اللا سمع وتنكمشُ على سريرها دونَ أن تُبادلني الكلام أو أي خُد وهات.

نصحني شيخُ منطقتي الذي سردت له قصتي وأسررت له بما في جعبتي بأن آتيَ لهُ بزوجتي، وهمس لي بأن السر الباتع سأجدهُ بين يديه دون غيره "واسأل عني وأنت تعرف"، فأنصتُّ إليه على حذر واستمعتُ إليه دون تنديد، وسرعان ما رجعت إلى زوجتي وأنا أحمل لها فرحتي ومعي بطيخة كُنت قد ابتعتُها في أثناءَ عودتي كأداة تعبيرية

"لا أعرفُ غيرها" عن كومة السعادة التي صادفتني على غير موعد، وأهِي حاجة ترطب على القلب وتلين دماغ زوجتي.

خابت كُل الآمال ولم يطل حلم التعرف على تفاصيل هذا الجسد الغامض "جسد زوجتي" كثيرًا، فسُرعان ما استيقظت مَصروعًا بعد أن أشبعتني ردحًا ووصفتني بالزوج مُنعدم التربية ناقص الإتيكيت مع الجنس الناعم.

إذن آلت صنوف الرجاءات التي أسقطها على زوجتي طول الليلة الماضية دون طائل، غير أني لم أرتكن إلى مَفاسد الآراء التي تُزاحم عقلي، وكلام زوجتي عني بأني ملقتش حد يربيني عشان بفكر في الحاجات دي، وقررت أن أُدبر لها أمرًا بليل، فطرأت على مُخيلتي فكرة رتيبة وقولت في نفسي لعلها تأتي بتلك النتيجة المرغوب فيها فماذا سأخسر!

فأدلفت نحوها ذات نهار وأمسكتُ جسدي بيدي في حالة إدعاء بالإعياء، وبأن الموت المُحقق لن يتركني وشأني خلال بضعة أيام أو شهور هكذا قال لي الدكتور، ثم أجهشتُ أمامها بالبكاء الجاف، وحضنتها دون ارتجاف فنفضتني وحدجت، وهمت إلى حمل حقيبتها المُستنفرة دائمًا للرحيل وصدّحت بصوتٍ مَسموع: "أنا رايحة بيت أبويا ولما تتعلم الأدب ابقى تعالى خُدني"، وانصرفت من فورها بعد أن أغلقت الباب بشدة جاء على إثرها تحطم واجهته الزُّجاجية، فذهبت في التفكير في تلك الزوجة "يعني يا رب أنا مكتوب عليّا أعيش أعزب حتى وأنا متجوز" طب أيه الحل؟!

هاتفت إحدى الصديقات علّها تُشيرُ عليّ بما يجب أن أفعله. فأخبرتها دون توغل بأن زوجتي ما زالت تحتفظُ ببكورتها إلى الآن وتخشى مُعاشرتي بل وتصفني بالزوج "المش متربي" كوني أريدُ منها ما يُريدهُ أي زوج سليم البنية الداخلية، فانفجرت بالضحك وقالت دون خجل "عليّا النعمه أنت شكلك واد خبؤ ولا ليك أي لزمه"، وعادت مرة أخرى إلى وصلة الميوعة الثقيلة على نَفسي.

انتهت بعد أمد مِن فترة القهقهة العبثية التي كانت عليها، بعدها أشارت عليّ بأن أذهب بزوجتي إلى إحدى عيادات الأطباء النفسيين، بعد أن ساورها الشك في أن تكون زوجتي مِن هؤلاء اللاتي يُعانين مِن أيٍّ من الأمراض التي نسمع عنها في تلك الأيام والتي معها تستشعر المرأة بأنها ما خُلقت لتكون امرأة بل الرجولة فيها هي سدرة المُنتهى التي يجب عليها أن تكون ويجب إليها أن تصل، فأصابني شيءٌ مِن الغم فهل يُعقل أن تكون عاقبتي وملاذي في زوجة "دكر" بعد طول انتظار!

انتشرت في أجواء منطقة المعادي بعد أن أخبرني أحد زُملاء الدراسة أن الدكتورة عفت إسماعيل الكائنة بذات المنطقة سوف تأتي لي بالتشخيص الصحيح والدواء الناجع بس أنت اجري عليها بسرعة دا الكشف عندها بالحجز يا مُغفل.

أوصلتني رجلاي إلى داخل مقرها الذي يبدو عليه ضعف الحال وقلة الزبائن وليس كما كنت أتوقع.

- السلام عليكم.

– أهلًا.. مين؟

– كنت عايز أحجز كشف مش دي برضو عيادة الدكتورة عفت؟

– أيوة بس الدكتورة توفت مُنذ قليل!!

"في وسط ذهول تاااام" إيه؟! عِفت توفت والآن!!

– نعم

ربما الحل في أن أتعجل في إنجاز أموري بعد الآن قبل فوات الأوان.. توفت والآن، ورحت في ترديد هذة الكلمة قبل أن أُلحمَ الكفَ على الكف ، ثم طأطأت رأسي مُنصرفًا.

فهاجمتني أفكارٌ عجيبة ليس منها قتل زوجتي العانس في عش بيتي أنا الزوج، ولا غصبها على المُعاشرة فأكون كمن يسرقُ ماله، ولكن قُلتُ في نفسي لماذا أذهب إلى فُلان وفلان وأنا أمتلك الزوجة والبيت وعناصر المراوغة الكفلية بأن تعملُ على تليين ما عَصى عليّ تليينه قبل ذلك؟!

ومِن فوري عمدتُ نحو منزل عائلة زوجتي بعد أن قلمت أظافري وأشعبت جسدي بروائح الصابون المُلبد بمواد الشد والتلمييع، فقابلني ابن أخيها صاحب الخمس سنوات.

– إزيك يا يحيى؟

– أهلًا يا عمو.

- إيه يا حبيبى مَفيش حد في البيت ولا إيه؟؟

- اه مفيش ، أصل كُلهُم خرجوا مِن شوية عشان ......

- عشان ايه يا حبيبي؟؟

- طب قربلي وأنا أقولك.

- وما إن اقتربت منه حتى لطمني اللعين بيده على وجهي، فدوّى صوت الصفعة بداخلي وهتفت على غير وعي "آه يا ابن المَرة الـــ........"، فهرول الطفلُ جريًا وترك البابَ مُنفرجَ الفاه وهو يُنادي ويقول:

يا طنط يا طنط جوزك اللي مِش متربي جه برا!!

وهي الجملة التي أصابت الزوج بالجنون: إيه يا هانم اللي بسمعه ده؟!

فلم تعتدُّ بغضبتهِ وراحت توجهُ لهُ تَساؤلتها كمُحقِّقٍ مُفعم بِعناصِر الكشف عن مثالب الأمور:

إيه جابك هنا؟! وبعدين إيه شُغل العيال الصغيرة اللي أنت عاملة في شعرك ده؟! فاكرني هستسلم لرغباتك الدنيئة بريحة الصابون اللي مغرق بيها نفسك!!

فكر الزوج بينه وبين نفسه "هل أُمسك بيديها فأثنيها حتى أسمع لها صوتًا يشي بإحداث كَسر يعقبهُ طعنةً في الرقبة، أم أتحججُ برائحة الغاز فأنصرف نحو المَطبخ وهناك أدوات القتل ستكونُ مُتوفرة فأتخلصَ مِنها، أم أُطلقها وأُعلن عصيانًا لا رجعة فيه على الزواج

وأُبدلُ رغبتي في أن أكون زوجًا بأن أستسيغ حياتي بلا إشباعات ذكورية حتى وإن كان الأمرُ جللا، أم أُرجِعُها إليَّ بعد أن أقضي علىً رَغباتي المُتعلقة بجسدها"؟!

واستقر بي المقام إلى هذا الحل الأخير، بعده ترحمتُ على أيام العزوبية المُنفردة والحياة بلا امرأة ترى فيّ الشذوذ حينما أهفوا إلى تقبيلها، والآنَ أعيشُ حياتي اللا زوجية مع "زوجتي العانس" على مَضضٍ، وأنا ألعن مَن وشى لي يومًا وقال تزوج!

96 رمسيس ... تحرير

وبعد طول انتظار وحالة بحث دؤوبة وجد الشاب رامي نفسه يمتهن مهنة "لَم الأجرة" وتقطيع التذاكر "كُمسري" بداخل إحدى أتوبيسات النقل العام (خط رمسيس .. تحرير). لا يفتأ روميو -كما يُلقبه العارفون به- بعد كل تلك السنوات الخوالي والأحلام الشاهقة التي تمنى أن لو حُققت ليُري أباه وأمه ومَن دونهم "إن الواد نفع وبقا حاجة كويسة".

أتذكر جيدًا اليوم الأول والأخير الذي جَمعني بهذا الشاب في لقاء واحد أعتقد أنه لن يتكرر، حينما كُنت في طريقي لاعتصام بمجلس الوزراء وأردت أن أستقل إحدى الأتوبيسات نظرًا لحدوث مشاجرة بين البائعين والشرطة أدّت إلى إغلاق أبواب محطة مترو الشهداء في وجه أصحاب المصالح وراغبي قضاء الحاجات، المهم أسرعت من فوري إمعانًا مني في الإنجاز وعشان اليوم يعدي على خير بعيدًا عن عَصى ودِرع الأمن المركزي. اقترب مني أتوبيس يحمل رقم 96 خط رمسيس تحرير فركبت.

شوية لقُدام يا أُستاذ الطُرقة أهيه فاضية.

وهو الشعار الرسمي لكُمسري المواصلات العامة وصِبيان الميكروبصات المَختومة على مؤخرها "باسم مصر"، فما إن أربو ناحية

الباب الخلفي وأَهِمُّ بالإدلاف شيئًا فشيئًا في أي حتة فاضية إلا وأسمع هذا الشعار التحريضي الذي لا يروق إلا لذوي الاحتياجات التحرشية، ومَكبوتِي المُتعة الجنسية .. لم يمضِ طلب الطالب بالتكدس والتلزق بالآخرين أو بالأحرى "بالأخريات" كمثيله، حيث التفتُّ سريعًا صوب اتجاه قدوم الصوت فرأيت ذلك الشاب غائرَ العينين مُدببَ الأنف صاحبَ الجسد النحيف والأكتاف العريضة.. استرعى انتباهي صوته والذي يشبه تمامًا طَنين الباب، وحنجرته التي تحاول التجسد في جسارةٍ صوتية "تِملى ودن الراكب" كي يهابه الكبير والصغير ويتنفضوا منوا العيال السيس، إلا أنه لم يفلح في ذلك فأنفاسه المتحشرجة وصوته الخفيض الذي يَدّعي ما ليس فيه وكذا قواه الرخوة فَضحوا حقيقته التي لا تتناسب وهذه الشغلانة.

أسرعت عَجلات الناقلة بي وزملاء الرحلة القصيرة وارتفع صوت أوكا وأورتيجا من سماعة إحدى الهواتف الصينية الذي صعد مع صاحبه للأتوبيس توًّا. وبعد هنيهة دوّى انفجارٌ هائلٌ وإذا بوقفة قوية ومفاجأة من سائق الأتوبيس، الأمر الذي معه انبطح جميع من بالمركبة والصراخ لا يكاد يكُف عنه أحد سوى رامي الذي راح في الضحك، وأخذ يتمايل يمينًا ويسارًا على كلمات أوكا وأورتيجا، وتلك الموسيقى التي ظلت حاضرة في هذا المشهد العبثي والحالة التراجيدية التي نحن بصددها. الكل يُحدج النظر إلى رامي، والتعجب يسيطر على كل المُنبطحين، سقطتُ أنا مع مَن سقطوا ورأيت ما رأيت من ملامسة أرداف الصغيرات ومداعبة نهود الجميلات، وما إن تنظر إحداهما إلى صاحب الفعلة إياها إلا ويعاجلها بقوله :"أسف حضرتك بس أديكى شايفة لو إتحَركنا عن الوضع ده هنموت" ..آه يا لئيم!

استقر الأتوبيس وهدأت تَرنحاته المجنونة، وهرولَ الجميع هربًا من مصيرٍ غير مرغوب فيه قد يصل إلى حَد الموت، والعمر مش بَعزقة يعني. سريعًا انسحبت تلك الكُتلة البشرية إلى الخارج في مشهدٍ يشبه كثيرًا مشهد انفجار القطار بعد أقل من دقيقة في نهاية أحداث فيلم "بطل من ورق"، وصراخ رامي قشوع ارتعادًا على نفسه التي ستنتهي عمّا قليل إذا لم يقفز من القطار، وهو الموقف الذي يتناقض مع رامي الكُمسري المبسوط بدِى نهاية قد تُودي بحياة اللي خَلّفتوا.

رامي لا يزال يضحك ولم ينفك عن كُرسية المُلاصق لحافة الباب الخلفي فلا هو يُسرع بالنزول ويلوذ بنفسه، ولا حتَى بينقطنا بسُكاتُه!

أثار هذا الشاب الثلاثيني فضولي، وغَرس في حَفيظتي سكينًا فلم أعد أُطيق تجاهل ما يقوم به من أفعال سيكوباثية، أنت مجَنون، يلا نجري القنابل الغازية المُسيلة للدموع هتقضي علينا بالشكل ده، وقوات الشرطة والجيش بيقربوا من الأتوبيس.

هكذا خاطبته دون جدوى قبل أن أُمسك بتلابيب قميصه وأنحدر به سريعًا خلف إحدى الشوارع الجانبية كي نتخفي في أبنيتها بعيدًا عن أعين الفارين منهم، ورامي لا زال يحتفظ بقدر كبير من غدد الضحك النشطة، والأمر بالنسبة لي أصبح أكثر تعقيدًا ، فَعلام يضحك هذا المأفون؟!

دا طلع مجنون.. الله يخرب بيتك سيبوا واجري.

وهو الصوت الداخلي ودعوات النذالة التي لم أستجب لها، فيعاود مرة أخرى ليُكرر تحريضاته بين الحين والآخر "والمصحف دا مجنووون وشكلوا كمان ضارب برشامة أو حقنة مَكس بتاعت كل

حاجة والعكس"، فألفظُ أنا مرة أُخرى تلك الومضات التحذيرية النابعة من نَفسي تجاه هذا الشاب، أشعر أنا الخارجي به وأرى أن أنا الداخلي قد جانبه الصواب هذة المرة في الحُكم على الآخرين. عيناي تربأ بنفسها وتتجاهل كل هذة الصراعات الداخلية والخارجية التي تدور رَحَاها زهاء هذا المشهد ولا تهتم إلا بمُراقبة حركة عيني الشاب، يداي هي الأُخرى لامست يديه وشعرت بالرجفة التي تتملّك أنامله وتستأسر كل أطرافه

- أنت اسمك إيه؟؟ قُلت

أجاب وملامح الجدية كست وجهه، اسمى رامي.

أصبت بحالة من الاندهاش بعد أن تحول فاههُ ِالفاغر مُنذ قليل بالضحكات والميع إلى شَكل مَلموم لا يكاد يتحرك إلا للرد، وكأن شيئًا من العُته السابق لم يحدث، أو أن تلك الأفاعيل الغرائبية لم تَصدر عنه! فعاودته بالسؤال مرة أخرى:

ممكن تقولي مالك؟؟ فيك إيه؟ وإيه كل الضحكات الرقيعة دي؟!

نظر إليّ وحملق عينيه الصغيرتين فيّ وقال: مانت واللي زيك عُمرهم ما هيحسوا بيا وباللي زيي، وبعدها دخل في نوبة بُكاء، وعلى الرغم من أنه لم يُطنب في الكلام أكثر من تلك الجملة إلا أنني وجدت نفسي أبكى على بُكائه، وشيئًا بصدري يخالجني بشأن هذا الشاب لا أعرف مَبعثه، فقد شاركته البُكاء وأنا لا أعلم ما بداخله سيما وأني لا أعلم الدوافع الحقيقية التي جَلبتني وراءه ... دانا أول مرة أشوفوا!

هدأت أصوات قنابل الغاز وذهبت ريحُها، ووجدت أن السلامة تكون في التحرك من هذا المكان.

قوم يا رامي الدنيا هدِيت والشُّرطة والجيش رِجعوا أماكنهم، دا كمان سائق الأتوبيس تركه ولم يبدِ أي اهتمام له ياله .. قوم بقى.

أمسكت راحة يده براَحَتي حتى استقام جسده وتحركنا..

ممكن بقى تحكيلي أنت مين وإيه حكايتك؟؟

وكان هذا السؤال بمثابة شارة السماح للشاب الضاحك الباكي دون كلام، بأن يتحدث ويُفضي لي بما في قلبه.

أنا اسمى رامي، وأصحابي يدعوننى روميو، مات أبي وماتت أمي خلال أحداث يوم جمعة الغضب، وتركوني وحيدًا، فليس لي إخوة آخرين بعد أن عجزت أمي عن أن تلد أحدًا بعدي، وأصبحت أنا لهم الابن الأول والأخير. أكملت تعليمي الجامعي وكذلك حَرص أبي على أن أحصل على "شهادة عالية" وقد كان، وأصبحت حاملًا لليسانس الحقوق، وليته أجدى إليّ بصالح أو أثمر عليّ ما يوازي عَنت الحصول عليه ، فكما ترى أعمل كُمسري.

أما عن العمل بمهنة المحاماة، فلا أملك رفاهية العمل بها ولا أقوى على تحمُل مَصاريفها في بداية امتهانها.

أخذ شهقة طويلة واستطرد بعدها:

شاركت في جميع الوقفات والاعتصامات، ولم تتركني مليونية قط.

"تغزرت الدموع على وجنتي الشاب وهو يُكمل لى كلامه، فشعر بجرياها فقطف دموعه بيديه ولم يبدِ اهتمامًا"

وأردف يقول:

والله أنا بحب البلد دي، بس الظلم فيها وصل مداه، والعيشة بقيت حاجة قرف، حاولت كثيرًا أن أتركها مُهاجرًا وهاجًا منها إلا أنني ارتطمتُ بحقيقة أني لا أقوى على فراقها. الكثيرون من أصدقائي رحلوا عَنها وحملتهم "الفُلوكة" حيث شواطئ أوروبا، فمنهم من ابتعلته أنهارها ومنِهُم من احتضنته بناياها العالية والمسألة مسألة حظ!

وقامت الثورة التي شاركت فيها بكل تفاصيلها إمعانًا مني في إنهاء عَهد أسود، ودروس في الظُلم طالت، قامت الثورة لتقضي عليها وذهبت، وبراثن الظلم بعينها وشيئًا مما سئمناه وثُورنا عليه لم يتغير بعد.

تعجبتُ حينما سَمع الركاب طلقات الخرطوش أو صوت انفجار قنابل الغاز وأضحكني كثيرًا ما رأيته منهُم، بعد أن شاهدت عليهم كل هذا الفزع رغم أنهم "هُما هُما" اللي شاركونا ليالي التحرير على مدار ال18 يوم الأولى وما تلاها، حيث كانت كل صدورنا وعيوننا "صيدة" مُستساغة، وفريسة يسهُل اقتناصها بفتحات الأسلحة الموجهة علينا، وأرواحنا كانت تافهة في نظر قائدي العربات الدبلوماسية التي كانت تستمرئ الخُطى على أقدادنا رغبةً منهُم في عمل مَطب صناعي ببقايا عظامنا وجماجمنا.. هكذا اعتقدت.

أضحك على هذا المخزون الكبير من الخوف على الحياة، ويزداد ضحكي في نفس الوقت على مَن كانت أيديهم تتحسس النساء، وأتعجب كيف أنهم جمعوا بين الخوف وقتما استقر الأتوبيس فجأة

ودَوت أصوات الطلّقات وبين رغبة بعضهم في التحرش وإشباع الرغبات!! حقًا هكذا يُبرع المصريون.

فقاطعتة بسؤالي .. ولكن ماذا عن بُكائك؟!

البُكاء هو شقيقي الذي عجزت أمي عن ولادته، صدقني يا حَضرة فهو لا يُفارقني ولا أُفارقه. أما عن السبب الذي أبكاني مُنذ هنيهة فهو حُلم كنت أتغنى به وأتمنى أن لو حققته، فكثيرًا ما كنت أود أن أكون مميزًا بين أقراني ووسط عائلتي، حتى أني كنت أقول لهم:

غدًا ستعرفون من أنا..

غدًا سترون ما سأكون عليه من أُبهة وأناقة ومظهر لن يقوى عليه غيري..

تذكرت هذه الجملة ونظرت إلى ثيابي "يونيفورم موظفي هيئة النقل" فقلت: نعم نعم أُبهة وأناقة لن يقوى عليها سواي، فقتل الطموح أصبح عادة مَوروثة، واستثمار العقول الناجعة "حاجة بتودي في داهية" وجميعنا في هذا الوطن من التُعساء يفغرُ بعضنا إلى بعضِ بابتسامة خادعة وصفراء "واللي في القلب في القلب".

قال ذلك وتوقّف على حين غفلةٍ عن الكلام.

بعدها ابتلعنا الصمت بداخله، وفرّقنا اختلاف العناوين، فتكرتُه وتركني .. دون سلام.

ما أشبه الليلة بالسنة اللي فاتت!

يزداد حُبي لها بشكل متواتر كلما مرت الأيام، ويكثر الحُلم بهـــا متى ساد الليل وانتشر لينام النيام. حُبي لها لا يُدانيه شيء، ولا يعادله أيٌّ مِن الموجودات، ولا يُبدلهُ جِبال مِـــن المواجهـــات والمَـــصاعب والمُشكلات.

حُبي لها يسمو فوق كل المفردات والعبارات الجميلة، حتى أنه يفوق الخيال، بل والخيال أيضًا لا يمتلك تلك الخاصية التي تتيح لهُ التعرف بشكلٍ حَقيقي على مدى ارتباط قلبي وعقلي ورَوحي ووجَداني كُلهُ بقَلبها وعقلها ورَوحها الطفولية.

لا تبرحُ قلبي قط، ولا يعرف العقل شاغلًا يشغلهُ إلّاها، فأنا أجدها أينما نزلت، وأشاهدها في كل شيء يقع في مواجهتي.

وجهُهَا مَحفورٌ داخل لباب قلبي، ومَلامحُها أستطيعُ رؤيتها متى راق لي ذلك، فقط كل ما عليّ هو النظر إلى السماء لأتحسّسَ شَكلَها الصبوح المُشرئب مِن خلف أسراب السحابات البيضاء المترامية أمامي.

حُبي لها لم يترك لي فُرصة أن أشك مرة واحدة أنها ليست لي، فهذه حقًا ستكون نهايتي.

نهايتي التي ستذبحُ قلبي أولًا وستبكي روحي بكاءً لم أبكه من قبل، إذًا فأنا لا أتخيل نفسي إلا بها ومَعها، ولن أرتضي أبدًا بديلًا لي عنها مَهما تراكمت السنين ومَرت الأعوام، لن أرتمي في أحضان الغُرباء

ولن أفغر فاهي بابتسامة أمام دونها مِن النساء، نَفسي سَتكون مُحرمةً على من سِواها، وعيني أبدًا لن تُحدِ النظر في وجهٍ بعد وجهها.

حبيبتي بيضاء القلب هي،

حسناء الوصف إذا ما وصفها الواصفون، وأثنى على أخلاقها الشاهدون.

لا مراء في أنها تتمتعُ بجاذبية تجعلُ مِن نظراتها للآخرين نظرة امتلاك، فلا يقوى أحد بعد ذلك على التَخلُص مِن عشقها، خاصة بعد أن تُبدي رغبتها لك في اعتقال القلوب وليس أيَ قَلب، بل قلب مَن يتناسب وقلبها الأسيف الذي لا يعرف لسكاكين الحُب عنوانًا.

كَم هي حَنونة جدًّا.

لا تغضب مِني.

هكذا أجدها تقول إذا ما استشعرت أنّ شيئًا ما يُخامرُني ويَضيقُ صَدري على إثر إرهاصاته، فقط عليّ التلميح بأنه قد طالَني شيءٌ مِن الغضب بسببها!

مِن فورِها سَتختفي بعد سماع تلك الكلمات لتتروي حيث يتروي العُشاق وبريشتها تنظم لكَ أجمل الأبيات، وتفاجئُكَ بأنها قد كتبت لك تقول أعشق حبيبي، وأحيانًا قد تراها تُشعِرُ فيكَ شعرًا لا أولَ له ولا آخر، لتكشفَ لك في آخر الجلسة عن رغبتها في انتظار الذهب، وهذه أقصى درجات الاستغفال الذي يُمارس عليّ لتحصيل منفعة ما مِني .. وهذ هو الجانب غيرُ المرغوب فيها، فأنا أؤمن بأنه عُض قلبي ولا تعُض رغيفي، فما بالكم "لو كانت العضه في دهب"؟!

جميلة هيَ حقًّا وذكية بما لا يدع مَجالًا أو مساحةً تسمح لك بالتناصح والتذاكي عليها، وكلمة واحدة فقط منها قد تودي بحياتك وتُنقلك إلى حالة سيئة من انقلاب المزاج وعكننة ما بعدها عكننة، وإذا أردت معرفة صدق ما أفتي به، فقط اترك لها الإسهاب والإطناب ثم انتبه لها وهي تقول يا من كنت حبيبي، أصداء هذة الكلمة الأخيرة سيجعلك بلا مراء تلهث وراءها لتستدر عطفها وترتجي رضاها "بس هِيّا ترضى".

نعم ستسكبُ المزيد من الحنان على مَسامعها على غرار يا قُرّة أعيني، إلا أنها أبدًا لن تَسمحَ لكَ بالتلاعُب بها وسَتُصِر على تحقيق مَطالبها بعد أن تُعيد عليك رغبتها في امتلاك الذهب!

ذكاؤها أيضًا قد يجعلها تتماسك وتتناسى كل التفصيلات المتراكمة داخل عقلها، وستتعرفُ على ذلك جيدًا حينما تُبدي لك شيئًا من الهبل الذي يظهر على وجهها وأيضًا من خلال ضحكاتها، ولكن ما تلبث أن تجدها تستوقف انبعاثة "فرحة العيال دي" لتتساءل أين أنا؟!

هل جُنت .. ربما يكون السؤالُ هُنا مَشروعًا!!

مُحاولاتك وقتئذٍ لن تجدي معها وسعيك نحو إيصال ما مؤداه إلى متى ستظلين هكذا؟؟

لن يُحرك فيها ساكنًا!

فقط عليك إظهار نيتك الصادقة في إحضار ما سبق وطلبته منك، وستتضحُ لكَ لمعة نجوم الأمل في عينيها على الفور، كما ستُعلن لك

بأنها لن تقوى على فراقك، الأمر الذي معهُ سَتعشقُ أنت كُل الأشياء المُحيطة بها، وقد تتغنى مَجازًا بحبها وتقول أولادك يا مصر، إلا أنها قد تُعاجلك بتهكم وتقول لك أنا مش ولد أنا بنت على فكرة، وفي تلك الحالة وَجبَ عليك تصحيح الكلمة سريعًا، ومن الأفضل أيضًا أن تتظاهر بأن الفرحة التي تنتابك "لأنها أخيرًا رضيت عليك وادتك وش حلو" قد طُبعت على لسانك فأصبحت ذا لسان مقيد متوتر وأعصابك بتترعش أهيه أهيه.

لا تقلق منها فهي شرسة -لا شك في ذلك- إلا أنها أيضًا طيبة جدًّا، وتأكد بأنه سريعًا ما ستجدها سارة لك في كُل أوقاتك، ومَسرورة هي الأُخرى بك في جميع حالاتك، ولكن كن على حذر إذا ما حاولت أن تُعنفك أو تُعذبك بحنانها ودلالها "ودلعها الماسخ" وقالت لك لَمِ الجفاء؟!

أرجوك لا تتركها وتتجه خارج الحجرة، بل عليك أن تُقبِّل يديها، وتتظاهر أمامها بدموع تُشبه تمامًا دموع الخيل، ليس لشيءٍ سوى أنها عاشقة للخيل وللقطط كذلك. وكُن كَيِّسًا في تعاملاتك معها وحكيمًا في تصرفاتك، واضرب سياجًا بينك وبين أن تستبيحُكَ البلاهة والعمل الأهوج، واكتسِ بالحكمة التي تُضاهي حكمة أوراق الخريف.

لا تُطنب في القول كثيرًا معها .. وكذلك حاول أن تتجاوز تلك الحالة التي كنت أنت وهي عليها، وابتعد كيفما استطعت عن دغدغة مشاعرها والضغط على أُنوثتها بكلامك الذي قد يكون على شاكلة

سوء ظنك انتحار .. يا ساااتر (!)، لأنه دائمًا ما تعقبُ هذة العبارة قرارت لن يتحملها غيرك خاصة إذا ما أخذت قرار الوداع لتخرُجَ بعده من بيتك إلى حيث بيت أهلها، وتترك لك كل الأمور على مَحملها، وأحد لن تجده يُساعدك في تلك الأمور المترلية مثل تحريك الأنترية للتنظيف أسفله، أو رفع الستار حتى يكون بعيدًا عن الاتساخ إبان عملية التنقيح المترلي، وصدقني ستبوء حياتك في تلك الحالة بمصاعب لن تقوى عَليها وستكون كمن يسعى لوصف الحياة لأعمى، وهو في الحقيقة لا حاجةَ لهُ للحياة التي "بقا لوها مبمي" لأنه كدا كدا مش شايف حاجة.

كل تلك الأمور تجعلني أصدق مقولة حبيبتي حينما كتبت تقول حروق العقوق، في إشارة منها إلى أنه من الأجدى إضمار النيران في مُحترفي عقوق الآخرين بعقولهم الجوفاء هذه، والتي تَحملُ صاحبها على تلك الأعمال الصبيانية، نعم عليك أن تسمع كلامها، ولها تقول ماشي الحال حتى وإن كنت تراه لا يمشي!

وحتى تتفادى نهاية قد لا تُعجبك بعد أن ترميكَ بشيء ما، قد يُفضي إلى إعاقة ذهنية، عندها سيكون مَجلسُكَ الدائم بعد ذلك ليس معها بل ستظل صباحًا ومساءً كامنًا وكائنًا وقابعًا على قهوة البطالة، حيث الناس اللي ما بتفهمش، وأيضًا الآخرين الجالسين عليها من قلة الشغل، ولا مانع من أن تُعلن بأنه الواد طلع موهوب، إذا ما صادفت موهوبًا وأسمعكَ قصيدة له فأعجبتك.

إلا أنه سَيُصدّق عليك كل ما يُقال عنك، وسينطبق عليك قوله وحده بعد فوات الأوان. قل بعد هذه الجملة ما تشاءُ عَليها فقد فات

الأوان بالنسبة لها وليس لك فرصة أُخرى، بل وتشدق بما تراه فلن يُجدي عتابكَ لها على غرار: كُنتِ لكن ما دمتِ، لأنها باختصار شديد قد أعلنتها بلا رجوع، وأخذت قرارها بعد أن أسمعتك كلمة: خلاص أنا همشي وسايباك.

وهي الكلمة التي قمت أنت بالرد عليها بقولك، عادي ما هي الحاجات دي مش غريبة عليكِ، وأردفت مَرةً أُخرى، يا ستي عادي أنا بَحب أبتسم للحياة ومش هامني انتي ولا غيرك على فكرة.

وها قد مَضت رحلة الأيام ولا تفتأ هي تذكر مَلامح وجهها وعينيها العَسليتين والتي دائمًا ما كانت تتغزل بهما وتقول عيني البريئة.

وها أنت أيضًا وقد مَضى بك العُمر فأصبحت تشبه تمامًا جدو المُسن المُنكسر، وصلابتك التليدة التي كانت تُذكرني بأبو الهول خاصمتك ورحلت.

كما لا تزال هي تذكُرُ أول يومٍ ذهبت فيه مع والداها حيث حديقة الحيوانات والأسد المصور، الذي ما إن رأتهُ شاخصًا أمامها حتى قالت إيييييه ده أنا خايفة يا بابا، وهكذا تصير الأيام وتسير، وتُقلبُ أفئدتنا ما بين ضحكة ودمعة، وهكذا يهجُرُنا الأحباب هجرةً تُشبهُ في آلامها وهذيانها هجرة العقول .. فما أشبه الليلة بالسنة اللي فاتت!

المَشهد الأخير!

ليل خارجي..

دُخان النرجيلة مُنبعث مِن كُل الأرجاء، ناصبًا سياجاته حتى تكاد الوجوه لا تَرى الوجوه المُتراصة جنبًا إلى جَنب مِن فرط حجم الكُتل الدُّخانية، سيما وأن الصَّخب والجَلبة هو مِن سِمات وفلكلورية هذا المَكان.

أنا: لو سَمحت مُمكن قهوة زيادة؟

هَكذا خاطبت أحد العاملين بالكوفي شوب، والذي صَدح مِن فوره قائلًا: "وعَندك قهوة زيادة هنا وعااااااااااليه"

تَحسستُ وجه هذا العامل قَليلًا وضَحكت دون أن يبدو شَيئًا على وجهي ولكني حادثتُ نَفسي بقولي: "إيه ده هو بيمد ليه في كلاموا .. وإيه اللي يقصدوا بالظبط مِن وراء كلمة عاااااااااااليه؟!"

بَعدها انتقلتُ بعَيني يَمينًا ويسارًا في نَظرة مِني شاملة على المَكان، فرأيتُ الجالسَ مَع نَفسه في صمود وصموت وكأنه يُعاتبُ الدَهر، ورأيتُ الجالسين مَع بعَضهم البعض وقد التفوا حول مَنضدة صَغيرة وكم أنهم كانوا في انتشاء وحبور تَبين لي ذلك جيدًا مِن أصوات ضَحكاتِهم التي عَلت صوت "السِّت" المُنبعث مِن مَوجات الراديو، واستَدرت قليلًا بجسدي فسَمعتُ بَعضًا مِن حَديث الجالسين خَلفي

دون أن أقصد التجسسُ أو التَّحسس، إلا أن الشاهد وما أثار استغرابي هو سَعيهم الدؤوب نحو الهروب مِن واقع أنهم من أصحاب الفاقة والعوز والاحتياج، وما لامستهُ فيهم مِن تجاهُل لتلك الحالة التي يُعانون منها تمامًا كتجاهلهم لملابسهم المُهترئة وأياديهم التي لا يُرى عَليها أيٍّ مِن مَظاهر الرفاهية، ووجُوهُهم التي أُشبعت مِن الدُّنيا لَطمًا ورطمًا وتجريحًا، وكيف أنهم عَرجوا جَميعًا نحو الحديث عَن أسعار السيارات الفارهة، والوجبات "الديلفري"، والهواتف التي لا يَرونها إلا مِن وراءِ حُجبٍ أو في أيادي مَن هُم دونهُم!

القهوة يا أُستاذ ..

كان هَذا صوت شاب صَغير السِّن وهو أحد العاملين بالكوفي شوف "المَقهى".

أنا: شُكرًا.

بَعدها أخرجت ورقتي البيضاء البِكر "دايما"، وأفرجتُ عَن قَلمي حَبيسِ جَيب "حَقيبتي أو بِنطالي"، وما إن شَرعتُ في الكتابة، حَتى ارتطمَت بي قَذيفة دُخانية، جَلستُ على إثرها أكثر مِن خَمس دقائق في إعياء وَقتيٍّ وكُحة صاحبتني هنيهة، ثم تَتبعتُ انبعاث ومَجرى وصول الدُّخان لي فارتطمتُ بمَثيلتها!!

أنا: ما تحاسب يا أُستاذ.

مَعلش يا ابني .. ثم إنت مالقتش غير المكان ده وتُقعد فيه، ما تشوفلك مكان تاني غير ده يا أخي!!

هَكذا كان رد الرجل صاحبُ الستين عامًا، والشَعر الأبيض والملامح الحادة .. عَليّ.

فَما كان مِني إلا الدخول في وَصلة مُلاطفة لهذا الكَهل، فَعُمره وما عَليه مِن كبر يُجبرك على التعامل مَعه باحترامٍ وَرفق ولين، سواء كُنت أنت المُخطئ أم غيرُ ذلك.

أنا: يا والدي حَضرتك أنا صَدري بيتعبني مِن الدُّخان ده.

الرجل: مُتفحصًا وَجهي .. أنت اسمك إيه يا ابني؟

أنا "بابتسامة تكاد لا تُرى": والله يا أستاذ أنا لم أعهد نَفسي إلا "أحمد".

الرجل مادًّا بصره نحو السماء (أظنه يُخاطبُ رَبهُ) بقوله: عَليك العَوض.. عَليك العَوض!

أنا: خير يا والدي أنا زَعلتك في حاجة؟! طب أنا بجد أسف، ولو حابب إني أقوم مِن المكان ده خالص أنا هقوم وحالًا؟

الرجل: مَهو الواد قالي هَغيب نُص ساعة وهرجع ولحد دلوقت مَرجِعش .. ثم أطنبَ في البُكاء.

أنا: حد يجيب كوباية مايه هِنا بسرعة يا جماعة .. (بعد أقل مِن دقيقة كانت المياه حاضرة)

اتفضل يا والدي اشرب بقا ووحِّد الله.

الرجل: أنا لما جالي خَبر الولد جريت، وجيت هِنا بِسُرعة عشان ألحقوا بس السِّر الإلهي كان خَرج.

استقر ما كان يَختلج بِصَدري مِن كَون أن هَذا الرجل مِن زُمرة الأباء والأُمهات الفاقدين لأبنائِهم فِي ثورةٍ مُنذ أن حَلّت لم تأتِ بِخير "حتى الآن"!!

أنا: أنت عارف يا ....

الرجل: اسمي إبراهيم صلاح.

أنا: أنت عارف يا عم إبراهيم إن الفئة الوحيدة اللي خَرجت بمكسب من جراء هذه الثورة هُم الشُهداء، ومِن بينهم ابنك وَحسب، وجميعنا سيموت ولكن ما عِند الله أبقى .. ولَا أيه؟

الرجل: ونِعمَ بالله .. بس أنت عارف إن أنت شَبه ابني قوي.
أنا "باندهاش": مَهو أنا فعلًا زي ابنك يا عم إبراهيم. انبسطت عَضلات وجَه الرجل، وأخَذ في مُحادثتي.

عم إبراهيم: قولي، أنت متجوز؟

أنا: لسه بس ربنا يسهل يا عم إبراهيم، فَتقدر تقول كدا إني "شاب على وش جواز"

عم إبراهيم: يَعني لِسه مادخلتش دُنيا.

أنا: ههههههههههههه لأ لسه يا عم إبراهيم، بس هدخلها قُريب إن شاء الله.

عم إبراهيم: طيب أنت عارف الدُنيا اللي هتدخلها؟

(سؤال لم أسأله لنفسي مِن ذي قَبل، ولم أقف أمامه ألبتة)

أنا: الجواز بقا والعِيشة الجديدة مَع العروسة، وتوديعنا لحالة العُزوبية يا عَم إبراهيم يا نِمس.

عم إبراهيم: شَكلك خام!

أنا مُداعبًا عم إبراهيم: خام الخليلي هههههههه

عم إبراهيم: هههههههههههه، وكمان شَكلك ابن نُكته.

أنا: أبدًا والله دا أنا مَبعرفش أضحك لما هأقول نُكت!

عم إبراهيم : ما بتعرفش تِضحك .. مِش بَقولك إنك خام.

أنا "مُستغربًا لتلك الكلمة": خام إزاي يا عم إبراهيم؟!

عم إبراهيم: اسمع يا ابني أنت لسه صُغير وبتقول يا هادي، وما تَملكهُ من الدُّنيا الآن كَثيرا، هل تَعرف أن ساعاتك ولياليك هُما أثمن الَأشياء في حياتك الآنية؟؟

أَشَرْتُ إليه برقبتي ما مفادهُ: "كَمِّل يا عم إبراهيم كَمِّل" عم إبراهيم مُستطردًا كلامه: يا ابني خُذ مِن الدِّنيا ما تستطيع أن تأخذه، وداعبها بالضحكات مَتى آن لك ذَلك، وتظاهر بِحبها وإن كُنت تَلعن سَنسفيلها، فالدِّنيا كالمرأة سواءً بسواء، تَغارُ حَتمًا إذا ما تَحولت عَنها أو تجاهلت وجودها، فَعليك أن تُعامل الدِّنيا على أنها أجمل الجميلات، ولكن لا تَركن إليها ولا تَعتمدُ عليها، وخُذ حِذرك منها كذلك، فلا يوازي غَيرها سِوى قَسوتها إذا ما ارتأت أن تَقسو عَليك.

وامشِ في الدنيا كما يَحلو لك، وصاحب كُلَّ مَن فيها دون أن تُصادقهم، فالصديق الآن كالعملة الأجنبية نعاني مِن نُدرتها وتراجع

امتلاكنا لها. وأَصْغِ أُذنيك لكُل الناس دون أن تَسمعَ منهُم، ولا تَضعف أمام شيءٍ فالدُّنيا لا تُسايرُ إلا النشامى والأقوياء، ولا تَحزن على شيء، واسلُك طريق الأصفياء، وافرح دائمًا وإن مات لك عَزيز فَغدًا ستموت أنت كذلك وستعلم حقيقة أن الحُزن لا يُجدي في القبر شيئًا، واستثمر لحظاتك ولا تُطل النظر أبدًا إلى شيء فَاتَكَ، فالقادمُ أولى بالتأمل، ووحده الغبيُّ هو مَن يُلبي نداء التألم.

وفجأةً سَكَنت مَلامحُ الرجل، واختفى صوته، وهدأت حركاته.

أنا: ما لك يا عم إبراهيم؟!

عم إبراهيم وقد قَطع صمته بعد دقائق والتف بجسده إليّ قائلًا: ليس لك مِني الآن سوى إسداء النُّصح، ولكَ أن تقبله أو تلفُظه، فَعليكَ يا بُني أن تَعيش في الدُّنيا كَهذا التمثال، انظر إليه سَتجدْ أن المارة يتكئون عليه في لحظات الرخاء وإن جاءت الأوقات العَصيبة سَتجدهم يلتحِفون بهُ وخَلفه للاحتماء .. وهو في الحالتين راضٍ دون امتعاض.

ثم عادَ وكرّر ما بدأ قائلًا: عليك أن تكون كَهذا التّمثال الشامخ، وأشار بيده إلى مَوضِعٍ، فَتركتُ أنا عينيّ وراء يَده حَيثُ اتجهت فَلم أجدُ أيّةَ تماثيل!!

فَرجعتُ بِعينيّ إليه فَوجدت أن الكُرسي المُجاور لي قد أصبح شاغرًا مِن عم إبراهيم؟!

فحملتُ حَقيبتي وانطلقت تاركًا المَكان، غير أني لم أندهش فأنا أعلم أين عم إبراهيم الآن!!

الفهرس